مقولات الأستاذ أمين الخولى

حول
إعجاز القرآن بين الحقيقة والوهم

إعداد

أ.د / محمود حسن مخلوف

أستاذ البلاغة والنقد المساعد بكلية اللغة العربية بأسيوط

١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م

لجنة التحكيم

أ.د. محمود عبد العظيم عبدالله صفا لجنة علمية دائمة

أ.د. فريد محمد بدوي النكلاوى لجنة علمية دائمة

تقدمه

الحمد لله حمداً يوافى نعمه ، ويكافئ مزيده ، وصلى الله ــ تبارك وتعالى ــ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين ... وبعد :

فلقد كان الأستاذ أمين الخولى ــ رحمه الله ــ من طلائع حاملى ألوية التجديد فى القرن العشرين الميلادى ، وقد كان له مزيد اعتناء بالنظر فى علوم البلاغة والإعجاز ، وقد أطلق حولها مقولات ذات خطر ، صارت بمثابة " البذور " التى نتج عنها ثمار عديدة بأقلام تلاميذه " الأمناء " ومن تقيلهم .

والرجل ــ رحمه الله ــ كان مبتلىً بذكاء مفرط ، أغراه بالنفور من التقليد ، والولع بالتجديد ، فألقى عدة محاضرات ، وكتب عدة بحوث جمعها تحت عنوان : " مناهج تجديد فى النحو والبلاغة والتفسير والأدب " .

ثم خصّ التجديد البلاغى بكتابه " فن القول " ، وله فى الكتابين مقولات حول كثير من مباحث البلاغة والإعجاز ، والقضايا المثارة حولها ، والمؤلفات المدونة فيهما ، ومناهج كاتبيها ... له حول هذه الجوانب كثير من المقولات المثيرة ، التى يجب أن تستوقف الدارسين دونما الوقوع تحت تأثير الانبهار ، أو روح الإتمام .

ومما يضاعف التبعة أن الأستاذ ــ رحمه الله ــ قد هيئت له من الملابسات والموافقات القدرية ما بوأه مكانة " الأستاذية " فى سن مبكرة ، ورزق شيعة من التلاميذ ، الذين بهروا بنظرات أستاذهم ، وسحروا بدعواته التجديدية ، فما فتئوا يتولون نقاط منهجه بالشرح والاستدلال ، كلٌ على حسب منهجه وطبيعة تفكيره ، وتذوقه ، فنتجت من " بذور " الأستاذ رسائل جامعية ، ودراسات كبرى ، اتخذت من مقولات " الخولى " ركائز ومنطلقات وسارت فى الاتجاه ذاته ، حتى هوت فى بوائق خطيرة مدمرة ، ما زلنا نعانى من آثارها حتى اليوم .

ولقد كان لهذه الآثار النصيب الأوفى فيما وصلت إليه حال " البلاغة العربية " اليوم فى مناهج وعقول الدارسين العرب ، حيث ينظر أكثرهم إليها بأعين الاستهانة بل الاحتقار ، على حين قد أشربوا حب وتعظيم مقابلها فى التراث الغربى .

ولا أزعم أن الأستاذ ــ رحمه الله ــ كان يقصد إلى هذا ، ولكنى على يقين من أن مقولاته قد حوت بذور هذا الفكر الظالم ، حيث استنبت فى عقول خالفيه بما هو مدون فى " الفن القصصى فى القرآن الكريم " لتلميذ الأستاذ : الدكتور محمد أحمد خلف الله . وتحقيق ودراسة كتاب " الشعر لأرسطو " لتلميذ الأستاذ : الدكتور شكرى عياد ،لتلميذ الأستاذ الدكتور نصر حامد أبى زيد .. [1]

وإنصافاً للأستاذ ــ رحمه الله ــ فإن فى كتابيه تقريرات صحيحه تدعو إلى التجديد الراشد وتحدد النهج السوىّ الذى يجب أن يلتزم به الراغبون فى التجديد .

ولما كان مجال " إعجاز القرآن " أخطر هذه المجالات وأمسها بالعقيدة الإسلامية ، عزمت على أن أجعل هذا البحث حول مقولات الأستاذ فى " الإعجاز القرآنى " مترسما خطى المنهج التالى :

* جمع مقولات الشيخ فى سياق دراسة " الإعجاز القرآنى " ، وإثبات نصوصها كاملة فى البحث .

* تحقيق مدى صحة هذه المقولات من عدمها ، مع الاستعانة بأقوال أئمة العلم فى القديم والحديث .

* الإشارة إلى آثار هذه المقولات فى عقول التلاميذ " الأمناء " الذين أداروا بحوثهم ، ومؤلفاتهم حول ما اعتقدوه " مسلمات " من كلام أستاذهم ، بل زادوا فى الاتجاه أشواطاً بعيدة ، حتى خرج بعضهم عن الجادة إلى الزيغ الخطير ....

* الاستشهاد من كلام الخولى فيما عده تجديداً من الحديث عن وجهى الإعجاز النفسى والفنى للرد على الخولى فى هجومه على الأئمة الذين أثبتوا وجوها للإعجاز ، وفى دعوته قفل باب التجديد فى الإعجاز ، وإصراره على إبعاد الغاية القرآنية عن أغراض البلاغة الحديثة .

هذا وقد اختط البحث مسيره على النحو التالى :

- مقدمة : تكلفت ببيان منزلة الخولى فى مجال الدراسة البلاغية الحديثة والاشارة الى خطورة مقولاته حول إعجاز القرآن ، وما ترتب عليها من آثار .
- تمهيد : فيه عرض موجز لأهم القضايا التى أثارها الأستاذ

---

(١) عن العلاقة بين " الأستاذ " وهؤلاء " الأمناء " . ينظر : تقديم د/ شكرى عياد لمناهج تجديد ٣- ٨ ط الهيئة المصرية العامة ١٩٩٥م وتقديم محمد العلانى لفن القول ١٧-٢٩ ط دار الفكر العربى ١٣٦٦هـ ١٩٤٧م

تم توالت المباحث الستة على النحو التالى :

- المبحث الأول : دعوى الأثر الأجنبي فى دراسة إعجاز القرآن
- المبحث الثانى : رفض أمين الخولى الوجوه التى أوردها الأئمة فى إعجاز القرآن
- المبحث الثالث : : تقييم الخولى لطوائف المتكلمين فى " الإعجاز "
- المبحث الرابع : إصرار الخولى على إخراج الغايات القرآنية من أغراض منهج البلاغة الحديثة
- المبحث الخامس : دعوة الخولى إلى إغلاق باب الاجتهاد والتجديد فى دراسة الإعجاز القرآنى
- المبحث السادس : الخولى يرد على الخولى
- خاتمة و تعقيب : رصد البحث فيها أهم النتائج التى أرتضاها .
- ثبت المصادر والمراجع
- ثبت الموضوعات

تمهيد

يتكفل هذا التمهيد بعرض سريع موجز حول أهم القضايا التى أثار الأستاذ أمين الخولى ، بادئاً برصد تقريراته التى هى محل اتفاق وقبول عند أهل العلم . ولا أشك أن كثيراً من الدارسين الجادين للبلاغة العربية قد انتفعوا بها .. مثل :

ـ تجديد منهج التأريخ العلمى الصحيح للبلاغة العربية ، بحيث يشمل ثلاثة نواح : تاريخ مسائل المادة وقضاياها ، وتاريخ المفكرين والعلماء من أصحاب الآراء المتميزة فى حياتها ، وتاريخ التأليف والمؤلفات فى البلاغة . (١)

ـ التنبيه إلى وجوب اتخاذ إشارات السابقين فى تقييم رجال البلاغة بمثابة " مفتاح شخصية كل منهم ، حيث لا تفى بترجمة العالم منهم إلا رسالة جامعية جديرة بهذا الاسم وذلك الوصف . (٢)

ـ التنبيه إلى قاعدة مهمة فى التجديد هى " أن أول التجديد قتل القديم فهما ، وعلى الأساس المتين من القديم نفهم ما نقصه من ظواهر التقدم الفنى الحديث . (٣)

ـ التنبيه إلى عظم دور اللغة فى نهضات الأمم حيث إن " اللغة مساك مما يربط الأمة ، وعنصر مما تقوم به حياتها ، لها على أهلها حقوق لا تجحد ، ولهم بها كيان لا ينكر ، وفى فنها القولى صورة من مزاج الأمة ، ودلالة على مقدار رقيها ، ومستوى حياتها " . (٤)

ـ إن أفضل فقرة وجدتها فى كتاب " مناهج تجديد " هى قول المؤلف ـ رحمه الله ـ " وليس يستبين المجدد طريقه ، ولا يدرى من أين يبدأ جهاده إلا إذا استجلى تاريخ ما يعانى تنميته ، وعرف كيف ومن أين بدأت حياته ؟ ومتى ، ولم وقف به الجمود ؟ .

---

(١) ينظر : مناهج تجديد ص ٦٧ ـ ٧٠ .

(٢) السابق ص ٩٩ .

(٣) السابق ص ٩٨ .

(٤) السابق ص ٧٥ .

فإذا ما تبين المجدد طريق غده بتجارب أمسه عرف ما يدع وما يأخذ ، وإذ ذاك ينفى ويثبت عن بصيرة ، ويبتر مظاهر الجمود فى هدى وثقة كالطبيب كشفت له الأشعة عن دبيب العلة .

أما إذا مضى برغبة فى التجديد مبهمة ، وتقدم بجهالة للماضى وغفلة عنه ، يهدم ويحطم ، ويشمئز ويتهكم ، فذلكم ــ وقيتم شره ــ تبديد لا تجديد . (١)

وأبادر فأقول : إن البحث سوف يتخذ من هذا النص الجيد ميزاناً لنقد كلام الأستاذ محاولاً تصنيف جهده فى القضية أو المسألة فى كفة " التجديد " أو كفة " التبديد " .

كذا ، فإن هذه التقريرات التى تحوى نفعا وصواباً وهدياً راشداً لشداة التجديد كان لها ثمار نافعة فى مناهج ودراسات بعض " الأمناء " ، ومن تأثرهم إلا أنه قد خالطها ــ فى الغالب ــ غير قليل من المقولات التى تحوى بذوراً فاسدة استنبتها دارسون لهم فى قلوبهم هوى ، وفى عقولهم زيغ ، فنتج عنها بأقلامهم ما يجب التنبيه إليه وإلى أصله حتى يحذره ذووا الرشد والفطنه ، ويجتنبوا غوائله .

وإذا كان البحث قد بدأ بالإشارة إلى بعض النقاط المضيئة فى منهج الأستاذ ، وفاء بحقه ــ رحمه الله ــ فإن من حق العلم على الباحث أن يشير إلى بعض آراء الأستاذ التى تعوز إلى تحقيق ومراجعة ــ والتى منها ــ :

ــ تقرير الشيخ بأن المسلمين فى دراستهم إعجاز القرآن ، قد اقتفوا سنن أمم سابقة عليهم حيث يقول إن " قضية إعجاز الوحى الدينى قديمة ، ليست خصيصة إسلامية ، فإن الهند قد وقفت منذ مئات الأجيال تبحث فى إعجاز كتابهم " الفيدا " الذى يسميه العرب " البيذ " ، وكذلك وقف المسلمون الوقفات الطويلة ، منذ أول ظهور الدعوة الإسلامية ، يذكرون المعجزة الكبرى لهذه الدعوة ، ويفسرونها تفسيراً ، تلون على الأجيال والقرون بألوان الثقافة الإسلامية .. (٢)

ــ تقرير الأستاذ تأثر البحث البلاغى العربى بتلك الثقافات المختلفة المستوطنة فى البلاد المفتوحة ، أو المجتلبة من الأمبراطوريات والممالك المجاورة " وإذا كان اتصال القوم بالثقافة اليونانية أبرز من اتصالهم بسواها من الثقافات التى سمعت عدها فى النقل القريب للجاحظ ، فإنهم بهذه الصلة الوثيقة

---

(١) ينظر : مناهج تجديد ص ١٠٩ .

(٢) السابق ص ٩٥ .

قد ترجموا منذ عصر مبكر من تلك الإغريقيات ما ترجموا ، وكانت السيطرة للمعلم الأول " أرسطو " فى اختيار ما نقلوه من كتابى " الخطابة " ، و " الشعر " له وحق الوقوف عند هذين الكتابين بخاصة لتبين آثارهما فى البلاغة العربية ".[١]

ـــ تقرير الأستاذ أن " البلاغة فى جميع أدوارها قد عاشت فى كنف رجال الفلسفة وتحت رعايتهم ، وجمهرة الأقلام التى خدمتها أقلام فلاسفة أو متفلسفين ، ولم يكد ذلك يتخلف فى عصر ما " .[٢]

ثم يمضى الشيخ قائلا : " ولو أمعنا النظر فى التقصى لوجدنا تأثر البلاغة بالفلسفة وفروعها من المنطق والكلام قوياً بعيد المدى من نواحٍ متعددة :

* قوياً بادياً فى نشأة البلاغة وظهورها .

* قوياً فى تطورها وسير دراستها .

* قوياً فى ضبط أبحاثها ، وتحديد دائرة بحثها .[٣]

ولقد تفرع عن هذه المقولة عدة آراء أخرى تركت آثاراً مفسدة فى دراسات البحث البلاغى .. منها :

* عدّ " الجاحظ ، وعبد القاهر ، والزمخشرى " من المتفلسفين الذين خدموا البلاغة العربية[٤].

* اقتفاء البلاغة أثر المنطق فى تحديد دائرة بحثها بالجملة الاسنادية فى مقابلة " القضية " ، وقرن البلاغة بعلم الاستدلال ، كما هو عند السكاكى والتنوخى ، وأن " هذا التقريب الشديد بين روحى البحثين هو الذى حدد دائرة بحث البلاغة ، فضيقها تضييقا شديدا ، وألزمها منطقه يسيرة الأهمية لم تجاوزها ، وذلك بأن قضى البحث البلاغى على خطى بحث المنطق ، وجرى فى مضماره ، ويكاد لا يعدوه .[٥]

---

(١) مناهج تجديد ص ٩٣ ، وينظر : ١١٥ ــ ١١٩ ، ١٢٣ .

(٢) السابق ص ١١١ .

(٣) السابق ص ١٠٩ ــ ١١٣ .

(٤) السابق ص ١١١ ، ١٢٣ .

(٥) ينظر : مناهج تجديد ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

* تقرير أن غاية البلاغة قد انحصرت فى غرض كلامى اعتقادى ، أى إلى غرض فلسفى خاص ، هو بيان إعجاز القرآن الذى له أثر كبير فى توجيه الدراسة والتأليف فى البلاغة العربية . (١)

* تزييف الأستاذ لمذهب أئمة المؤلفين فى مجال " إعجاز القرآن " والذين تلمسوا وجوها فى تفسير الإعجاز وتعليله ، مؤيداً منهج الاكتفاء بالتذوق ، ناسباً إياه للسكاكى . (٢)

* إطلاق الشيخ ما زعمه " مدرسة مصرية فى البلاغة " معتمداً على تعداد بعض أصحاب المؤلفات البلاغية المستقلة عن " المفتاح " مثل " سر الفصاحة " لابن سنان الخفاجى ت٤٦٦ هـ ، و " تحرير التحبير " لابن أبي الأصبع المصرى ت ٦٥٤ هـ ، و" الإشارة إلى الإيجاز فى بعض أنواع المجاز " للعز بن عبد السلام ت ٦٦٠هـ .

بل قرر الأستاذ الخولى أن من علماء المدرسة المصرية من كان له تذوق خاص ومنهج متفرد فى شرح تلخيص المفتاح المسمى " عروس الأفراح " لبهاء الدين السبكى ت٧٧٣ هـ مقارنا بينه وبين شرحى السعد " المختصر والمطول " ، منتهيا إلى توصية بتقرير " عروس الأفراح " على طلاب الأزهر ، والجامعة المصرية ، زاعما أن " فى مدارسة هذا الكتاب إحياء للروح العربية الأدبية " . (٣) وحول هذه المقولات أسجل الملاحظات التالية ، فى محاولة لاستبانة المنهج الصحيح فى تحقيقها ، حتى يتميز صوابها من خطئها ، فينفى زغلها ، وتجلّى حقائقها بما يضمن صواب التجديد الذى تغيّاه الشيخ ــ رحمه الله ــ مع دعاته الجادين الموفقين .

ولن يتردد البحث فى الجهر بخطأ ما يثبت ــ يقينا ــ خطؤه ، مع التنبيه إلى آثاره فى دراسات نالت حظاً من الشهرة والذيوع ، حتى تطب آثارها فى عقول الدارسين المعاصرين ، ولا يأخذوها مسلمات يقينية لصدورها عن ذوى النباهة والصيت ، كما حدث إبان عصر عبد القاهر ــ رحمه الله ــ وأكثر من التنبيه إليه(٤) .

---

(١) السابق ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) السابق ص ١٣١ .

(٣) السابق ص ١٧٣ ــ ١٩١ .

(٤) ينظر دلائل الأعجاز

المبحث الأول
دعوى الأثر الأجنبي فى دراسة إعجاز القرآن

من أخطر المقولات التى ابتدعها أمين الخولى دعواه أن " قضية إعجاز الوحى قديمة ، ليست خصيصة إسلامية ، فإن الهند قد وقفت منذ مئات الأجيال تبحث فى إعجاز كتابهم : " الفيدا " الذى يسميه العرب : " البيذ " .. وكذلك وقف المسلمون الوقفات الطويلة منذ أول ظهور الدعوة الإسلامية ، يذكرون المعجزة الكبرى لهذه الدعوة ، ويفسرونها تفسيراً تلون على الأجيال والقرون بألوان الثقافة الإسلامية "[1]

ومن المعجب حقاً أن هذا الرأى الفطير الشاذ ليس له أصل فى التراث القديم كله ، ولم يقع فى خاطر أهل التخليط والزيغ ، الذين أثاروا الشبه والشكوك حول القرآن الكريم وحقائقه إبان الدولة العباسية وما بعدها .

أقول : إن هذا الرأى ليس له أصل إلا فى عقول المستشرقين " المنصرين " ، وفيه من طبعهم ، ومنزعهم ، ومنهجهم ، ثم إنه قريب من منزع " طه حسين " المشترك مع " الخولى " فى دعوى تأثير الثقافة الأجنبية فى البلاغة العربية .

وإذا كان الأستاذان قد اشتركا فى إثبات " الأثر الهلينى " فإن " الخولى " قد فاق قرينه ، فزاد فرية إثبات الأثر " الهندوسى " فى أقدس حقيقية عند المسلمين ، أعنى حقيقة " إعجاز القرآن الكريم " .

وإنما كان هذا الرأى " فطيراً " لأن صاحبه ألقى به ــ كعادته ــ شبهة طائرة ، دون أن يقيم عليها دليلاً واحداً ، لا صحيحاً ولا باطلاً ، كما هو الشأن فى منهج إقامة الدعاوى صغيرها وكبيرها ، فضلاً عن واحدة هى عظمى الفرى وأخبثها .

---

(١) مناهج تجديد ص ٩٥ .

لم يكن " الإعجاز " وحده مستهدف الشعوبية القديمة والحديثة ، بل إن لهم قصصا أخرى فى أساطير ملفقة تزعم صلة ما بين العرب والهند فى علوم البلاغة ، والنحو ، والعروض ... عرض شيئا منها صاحب " تحقيق ما للهند من مقولة ، وأحمد أمين فى ضحى الإسلام ٢٤٥/١ ، وفندها د / محمد نايل فى " البلاغة بين عهدين " ص ٨٤ ــ ٨٦ . ط دار الفكر العربى ط ١٩٩٤م.

فهل كتاب " الفيدا " أو " البيذا " يعد وحياً سماوياً ؟ ، وهل كانت الترجمة من الهندية قد اتسعت حتى شملت هذا الكتاب وقتئذ ؟ وفرضاً أن ذلك قد حدث ، فمتى تمت الترجمة ؟ وعلى يد من ؟ وأين توجد نسخ الترجمة ؟ وما وصفها ؟ ثم أين هذه النصوص التى أفاد منها المسلمون فى دراستهم لإعجاز القرآن الكريم ؟ .

أسئلة عديدة .. لا جواب عنها لدى الخولى ، ولا من تولى كبر تطوير هذه الفرية ممن سيأتى الحديث عنهم ..

إذن .. فلا حقيقة لما ادعاه هؤلاء إلا الزعم الكاذب ، والرجم الطائش ، والنقل الأعمى عن المنصرين ..

إن " أمين الخولى " نفسه قد قال ــ عقيب دعواه السالفة ــ : " وكذلك وقف المسلمون الوقفات الطويلة منذ أول ظهور الدعوة الإسلامية ، يذكرون المعجزة الكبرى لهذه الدعوة ، ويفسرونها تفسيراً ، تلون على الأجيال والقرون ..

فها هو يخط بقلمه أن المسلمين قد وقفوا الوقفات الطويلة منذ أول ظهور الدعوة الإسلامية أمام المعجزة الكبرى يحاولون تفسيرها .

وقد كانت وسيلتهم إلى هذا التفسير ومنهجهم فيه هو " التذوق " ثم " التذوق " ، ثم " التذوق " .

حيث أدرك العرب جميعهم ، من آمن منهم ، ومن كفر ، أن هذا المنزل على محمد ﷺ بيان لا يقع فى طوق بشر مهما أوتى من موهبة الإبانة ، سيما بعد عجزهم وإبلاسهم فى مواجهة تحدى القرآن لهم بأن يأتوا بمثله أو بعشر سور من مثله ..

وهكذا أيقنوا بتذوقهم بيان القرآن أن " حلاوته ، وطلاوته ، وسحر بلاغته .. هو سر إعجازه إياهم ، وإبلاسهم أمام تحديه لهم .

فلما نبتت نابتة السوء فى أوائل القرن الثانى الهجرى ، بمقالة الخبيث الجعد بن درهم المقتول ١٢٤هـ [١] القائل : " إن فصاحة القرآن غير معجزه ، وأن الناس قادرون على مثلها وأحسن منها !! مخالفاً بذلك عامة العرب ، كافرهم ، ومؤمنهم = بدأ التفكير فى وجه إعجاز القرآن بمناهج أخرى ،

(١) ينظر : إعجاز القرآن للرافعى ص ١٨٥ ط خاصة مهداه الى الملك فؤاد الأول

غير التذوق ، فكانت مقولة " النظام المتوفى ٢٠٠ هـ ، بالإعجاز بالصرفة ، والتى أوقدت حمية أهل العلم فى الرد عليها ، وإثبات الإعجاز البيانى للقرآن ، إثباتا منهجيا برهانيا ، بعد أن كان لدى الأوائل إثبات تذوق .

ولعل فى هذا النهج الجديد لدى أئمة العلم ما يتلاءم مع التطور الذى حدث فى المجتمع المسلم من ضعف الأذواق ، وكلل النحائز ، وغلبة المناهج العقلية على منهج التذوق ، وإن بقيت منه بقية خير لدى أهل العلم وذوى المواهب الفائقة .

هذا هو التسلسل التاريخى ، والتطور الطبعى لدراسات الإعجاز ومناهجها لدى المسلمين ، كما تشهد له مراجعة تاريخ هذه الحقبة ، ولم يكن علماؤهم بحاجة إلى إفادة إثبات " ألوهية القرآن " من فم هندوسى ، ولا غيره .

والذى يقطع بهذا أن القوم كانوا فى غاية التحرج والتشدد ضد إقحام أى فكر غير إسلامى فى دائرة فهم القرآن الكريم بكافة فروعها .

وها هى كتب الأئمة منهم تؤكد هذه الحقيقة ، حتى أولئك الذين تسامحوا فى مطالعة تراث غير المسلمين والنقل عنها كالجاحظ ، والفارسى ، والزمخشرى ، والرازى ، وأضرابهم فهم على سعة علوم ، وتنوع ثقافاتهم إلا إنك لا تجد لهم فى دراساتهم القرآنية أدنى إشارة إلى أثر أجنبى ، صغيراً كان أو كبيراً ؛ لأنهم على يقين من أن هذا إلحاد فى الدين ، وفسق عن النهج القويم فى فهم كلام رب العالمين المنزل (بلسان عربى مبين) .

يقول الشيخ العلامة محمود محمد شاكر ــ رضى الله عنه ــ عن أبناء الأمم الذين دخلوا فى الإسلام والعربية : " فنشأ من امتزاج ذلك كله بيان جديد ، ظل ينتقل ويتغير ، ويتبدل جيلاً بعد جيل ، ولكن بقى أهله بعد ذلك كله محتفظين بقدرة عتيدة حاضرة ، هى تذوق البيان تذوقاً علمياً ، يعينهم على تميز بيان البشر ، كما تعهده سلائقهم وفطرهم ، من بيان القرآن الذى يفارق خصائص بيانهم من كل وجه . [1]

---

(١) مداخل إعجاز القرآن ص ١٧٨ دار المدنى – أولى – ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢م

وأقول : لقد نبتت هذه البذرة الفاسدة فى عقول دارسين هيئوا لتقبل أمثال هذه الضلالات ، فشققوا القول حول هذه الفرية ، واتخذوا من سطرى " الخولى " منطلقا إلى نظريات أجرأ ، وأوهام أضل ، وأفكار أشد فساداً وإفساداً .

فها هو ذا صاحب كتاب " نشأة التفسير فى الكتب المقدسة "يقول فى صفاقة نادرة : " إن نظرية النظم عند عبد القاهر هندية خالصة ، استعيرت من الهنود ، لتكون وسيلة العرب إلى بيان إعجاز القرآن ، والكشف عن خصائص أسلوبه المعجز ، مؤيداً هذا بأنه ما كتبه "بانينى" يتفق وما قال به عبد القاهر ؛ إذ نراه يتحدث عن النظم ، وصلته بمعانى النحو ، وأن الإعجاز الأدبى إنما يحدث نتيجة لائتلاف هذه المعانى وتساوقها ائتلافاً يهيئ الخصائص لتكسب الكلام أصالة أدبية يتسامى بها عن مألوف الحديث .

ومن الجائز أن يكون عبد القاهر فيما كتب قد استفاد من البلاغتين : الهندية ، واليونانية ، فإنا نعرف أن عبد القاهر قد استعان فى بحثه البلاغى بما كتبه الباقلانى .[1]

وهكذا ترى أن فساد المنهج قد تضاعف لدى التلميذ ، وازداد سفوراً وصفاقة حتى أصبحت " نظرية النظم عند عبد القاهر هندية خالصة " !! .

هكذا يقضى الباحث " المحقق الجرئ " فيما دون السطر على عمل ، هو فخر الدراسات البلاغية ، والنقدية فى كل لغة وجيل ، يقضى على صاحبه بالسطو والسرقة والخيانة العلمية ، دون إثبات دليل واحد يثبت صحة دعواه !!! .

وإن مثل هذه " السخائم " مما يحتاج إلى صبر مضاعف فى مطالعتها فضلا عن مناقشتها ؛ إذ كيف يجرؤ مثل هذا المتهور على القول بأن " العرب استعارت نظرية النظم من الهنود " لتكون وسيلتهم إلى بيان إعجاز القرآن والكشف عن خصائص أسلوبها المعجز" !!.

---

(١) د/ السيد أحمد خليل ص ٩٣ . عن البلاغة المفترى عليها للدكتور / فضل حسن عباس ٢٤٦ ط. دار الفرقان الاردن ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م ثانية

فهل كان العرب ، لاسيما أجيالهم الأولى ، بما عرف عنهم من بلوغ أقصى درجات التفوق البياني ، إنشاءً وتذوقاً ، بحاجة إلى استعارة نظرية النظم من الهنود أو غيرهم حتى يتعرفوا على إعجاز القرآن وخصائصه البيانية ؟ .

كيف ... والتاريخ يثبت أن الجيل الذى نزل فيه القرآن قد بلغ من موهبة التذوق مبلغاً لم يكن لـه مثال فى التاريخ من قبل ذلك ولا من بعده فى أمة من الأمم سوى العرب ولا فى لغة من اللغات سوى العربية إلى يومنا هذا . (١)

وإذا تجرأ الباحث المتهور على إثبات أخذ " عبد القاهر " عن " بانينى" فأين نصوص " بانينى " التى تثبت مقارنة كلام " عبد القاهر " بما الإفادة منها ؟ ، ثم أين الشواهد التاريخية الموثقة أو غير الموثقة التى تثبت أن هذه النصوص ـــ على فرض وجودها ـــ كانت بين يدى عبد القاهر ، وهو يبنى نظرية النظم ؟ !.

تعجب من كل هذه التجاوزات فى المنهج من أناس " يتبجحون " دائماً بأنهم يلتزمون بقواعد المنهج العلمى ، وأنهم سوف يعلنون نتائجهم التى اقتضاها سلوك المنهج العلمى ، مهما خالفت ثوابت مستقرة فى عقول الناس .. إلى آخر هذه الطنطنة الجوفاء التى يتسترون وراءها ، ويهوشون بها ، للتمويه فى ترويج ما أمروا به من " كهف على بابا " . (٢)

وسمة عامة فى منهج هؤلاء ؛ أساتذة وتلاميذ ، إن كان لهم منهج ، أنهم يعتمدون على المراوغة فى بث ما يرومون ترويجه ، مرة بأسلوب حاسم مؤكد ، ثم ما يلبثون أن يعيدوا هذه الفكرة

---

(١) من كلام الأستاذ / محمود شاكر فى قضية الشعر الجاهلى ط المدنى – اولى – ١٤١٨هـ ١٩٩٧م وينظر مراجعات فى أصول الدرس البلاغي د/ محمد أبو موسى صـ٢٠٨،٢٠٩ ط وهبة –ولى – ١٤٢٦هـ /٢٠٠٥

(٢) " كهف على بابا " مصطلح أطلقه أ / مالك بن نبى ـــ رحمه الله ـــ على مقر قيادة الاحتلال الفرنسى فى الجزائر ، وداخلوه ضمن " العدة " ينظر تقدمة " تقريب منهاج البلغاء" لشيخنا ابى موسى ط وهبة –أولى – ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

فى أسلوب متشكك متردد ، ليوقعوا الباحث فى حيرة من أمره ، ويصلوا به إلى مرحلة الإعياء التى يضطر فيها إلى التسليم .[١]

فصدر الفقرة التى يقرر فيها د / السيد أحمد خليل ــ الفرية السالفة ــ تتسم باليقين والجزم : " أن نظرية النظم عند عبد القاهر هندية خالصة " فهذا تقرير حاسم جازم مؤكد بأن ، والوصف " خالصة " .

قارن هذه بما جاء فى نهاية الفقرة من الأسلوب الواهى المتردد فى قوله : " ومن الجائز أن يكون عبد القاهر فيما كتب قد استفاد من البلاغتين : الهندية واليونانية " ، فكيف يتسق منهج تتناقض تقريراته إلى هذا الحد ؟ .

يضاف إلى هذا الاستدلال " المضحك " على احتمال إفادة ــ البلاغتين ــ بأنه : " قد استعان فى بحثه البلاغى بما كتبه الباقلانى " ، مقتضى هذا الاستدلال أن تكون إفادة الباقلانى من البلاغتين حقيقة مقررة يصح الاتكاء عليها !!.

وهذه ــ أيضا ــ وهم من الوهم ؛ إذ لم يتفوه بهذا أحد من اساتذة الباحث " الثبت " على جرأتهم ، وإخلاصهم ، وتسرعهم فى الربط بين علماء الأمة والثقافات الأجنبية .

أقول : لا تجد هذا عند طه حسين ، ولا أمين الخولى ، ولا أحد من تلاميذهم الذين قلدوهم ، بل زادوا عنهم أشواطاً فى هذا المضمار .

ومع هذا كله فإنى لأحسب أن الباقلانى ، وإن كانت كتبه بين يدى عبد القاهر ــ لقرب الزمان والمكان والمذهب ــ إلا أن الدراسة التحليلية لمحتوى كتب الإمامين تؤكد ضعف هذه الإفادة ، إن لم تكن عدميتها .

ولم يرد اسم " الباقلانى " فى كتب عبد القاهرة مرة واحدة ، بل إن عبد القاهر شرح كتاب " الواسطى " المعتزلى سابق الباقلانى بقرن من الزمان (٣٠٦)هـ ، شرحين ، ولم يورد من كلام الباقلانى سطراً واحداً فى مؤلفيه عن إعجاز القرآن : دلائل الإعجاز ، والرسالة الشافية .

---

(١) قرر هذا د / ناصر الدين الأسد . أسلوب المناقشة " طه حسين فى قضية الشعر الجاهلى . ينظر مصادر الشعر الجاهلى ص ٣٨٠ ، ٣٨١ ط . دار الجيل بيروت ط . ثامنة .

فكيف يتجاوز " الباحث المتهور " كل هذه الحقائق ليقرر استعانة عبد القاهر فى بحثه البلاغى بما كتبه الباقلانى ، فضلاً عن أن يبنى على هذا تجويز إفادة عبد القاهر من البلاغتين !! .

وحقاً ، إن هذا الكلام أعجب من كلام " حجا " على حد تعبير شيخنا أبي موسى الذى ختم الإشارة إلى هذه السخافات بقوله : " ولله درة هذه السخافات التى قالت أن البلاغة العربية أصلها هندى ، لأنها اسقطت أختها التى قالت إن أصلها يونانى ، كما أن أختها أسقطتها ، وبقى الحق وذهب الباطل ". (١)

والمقصود هنا بأختها التى قالت بالأصل اليونانى " ما ابتدع فريته أمين الخولى ، وطه حسين من الأثر اليونانى فى البلاغة العربية ، ثم قلدهم فى انقياد مخجل كبار تلاميذهم أمثال د/ عبدالرحمن بدوى و د / شوقى ضيف ، و د / محمد غنيمى هلال ، و د / شكرى عياد ، و د / محمد مندور (٢) ، وآلاف من تأثرهم فى جامعات العرب ، دون تحقيق يمحص كنه هذه التقريرات الطائشة ، وفيها ما رأيت .

على أن هذه : الجوقة " على وهن أسسها ، قد استجمع لها من وسائل الدعاية والنشر ما غطى على أصوات الإنصاف والتحقيق السديد كما تجده عند د / محمد زغلول سلام ، و د / زكى نجيب محمود ، ود/ عبدالسلام عبدالحفيظ ، و د / فضل حسن عباس (٣).

هذا ، وقد روّى شيخنا أبو موسى فى هذه القضية عقوداً عديدة ، وهو صابر على تحقيق القول فيها ، ثم قضى بعد أكثر من ثلاثين عاماً قضاء فصلاً فى تحقيق يزيد عن ثلاثين صفحة : بأن هذا الذى توهمه "النابغون" فى تواتر معصوب الأعين إنما هو محض افتراء .. (١)

---

(١) تقريب منهاج البلغاء ص ٢٩٤ ، ٢٩٥

(٢) ينظر : حازم القرطاجنى ونظريات أرسطو فى الشعر والبلاغة ط. القاهره ١٩٦١م البلاغة تطور وتاريخ ص ١٦٧ ــ ١٧٢ ط . دار المعارف . رابعة ، والنقد الأدبى الحديث ص ١٤٩ ط . نهضة مصر . بدون ، وتقديم كتاب الشعر لأرسطو ص ١ . ط . دار الكتاب العربى سنة ١٣٨٦ هـ ــ ١٩٦٧ م ، والنقد المنهجى عند العرب ص ٦٢ ، ٦٣ ط . دار المعارف بدون .

(٣) ينظر : أثر القرآن فى تطور النقد العربى ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ ط . دار المعارف ثالثة ١٩٦٨م. وتقديم د / زكى نجيب محمود لتحقيق شكرى عياد للشعر لأرسطو ص (هـ - ل) ط دار الكتاب العربى . يراجع مناهج البحث البلاغى ٤٣- ٥٠ ط دار الفكر العربى ١٩٧٨م أولى ، والبلاغة المفترى عليها ص ــ ١٧١- ٢٥٨ ط دار الفرقان / عمان الاردن - ثانية - ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م

وقد تلقف هذا الوهم الفاسد دارس آخر ، وتأثر به ، وبنى عليه خلاصة ما أجهد فيه نفسه من نقض ثوابت ثلاثة نقلها الباقلانى عن عيون أئمة الأمة وارتضاها ثقاتهم قديماً وحديثاً ، وحققوا القول فيها بأدلة وبراهين علمية قاطعة من كون اللغة العربية فاضلة فى ذاتها على غيرها من اللغات ، وأنها لهذا اختيرت وعاء للقرآن الكريم ، وأن الله نعتها بما يفيد تميزها على سائر اللغات ".[٢]

ومراجعة كلام المحققين كالجاحظ [٣]، وأبي على ، وابن جنى ، وعبدالقاهر ، والزمخشرى ، والعقاد ، والرافعى ، ومحمود شاكر تكشف صواب ما أورده الباقلانى عن العربية ، وفضلها ، وخصائصها ، ويشير — فى الوقت ذاته — التى ما انطوت عليه سرائر هؤلاء الذين أنفقوا أعمارهم فى نشر هذه الأباطيل فى تفانٍ وحماس نادراً ما نجد لهما نظيراً بين دعاة الحق فى هذا الزمان .

---

(١) ينظر خصائص التراكيب ١٠٨- ١١٠ ط ثانية ١٩٨٠م والاولى ١٩٧٤م وتقريب منهاج البلغاء صـ ٢٦٣- ٢٩٥ ط ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م

(٢) د/ عبد الوهاب مخلوف فى دراسته عن " الباقلانى وإعجاز القرآن" ص ١٤٣ ــ ١٥٨ ط الحياة . بيروت ١٩٧٣م

(٣) ينظر البيان والتبين ٥٥/٤ ،٥٦ ت عبدالسلام هارون ط الخانجى رابعة ، رسالة حجج النبوة ضمن رسائل الجاحظ ٢٧٣/٣.ز ت عبدالسلام هارون ط . الخانجى ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م أولى ، والخصائص لابن جنى ١٧٧/٢ ، ١٩٠/١ حيث أورد أبو الفتح فى هذه القضية حوارا طريفا عميقا مع مناظره " الشعوب " حول فضائل العربية ، نكاد تسمع فيه صوت الشانئ المحدث ، وتعجب من دقة ابى الفتح وشيخه ابو على – رحمهما الله – وقوة حجتهما ، وإصابتهما حاق الصواب ينظر الخصائص ٢٤٢/١ -٢٤٤ ت النجار ط. الهية المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩ رابعة .

والكشاف للزمخشرى ٩/١ ط. مصطفى الحلبى ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م

والفائق فى غريب الحديث ١١/١ ت البيجاوى وابى الفضل ط. عيسى الحلبى / ثانية

واللغة الشاعرة للعقادة ٥-٧ ط. المكتبة العصرية – بيروت – بدون

وإعجاز القرآن للرافعى ١٧٦ ط . التجارية الكبرى ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م ر ثامنة ، وينظر مصطفى صادق الرافعى للدكتور محمد رجب البيومى ١٠٣، ١٠٤ ط. دار القلم دمشق ١٤١٧- ١٩٩٧مأولى

قضية الشعر الجاهلى فى كتاب ابن سلام لمحمود شاكر ٥٨ وما بعدها ط. المدنى ١٤١٨هـ أولى .

الشافية فى أعجاز القرآن لعبد القاهر ٥٧٦ ت الشيخ محمود شاكر فى ذيل الدلائل ط. المدنى ١٤١٣ هـ ١٩٩٢م ثالثة

المبحث الثانى
رفض أمين الخولى الوجوه التى أوردها الأئمة فى إعجاز القرآن

من المقولات الطائشة التى أطلقها الخولى فى مجال " إعجاز القرآن " ما قرر فيه أن " ذلك القول بالتعليل وبيان الأوجه ليس إلا الرأى الفائل [١]، والمذهب الزائف ، وإن شاع وساد عند المتأخرين " . [٢]

وهكذا فى سطر ونصف يدمدم " الخولى " على ما أجمع عليه أئمة الإعجاز منذ الجاحظ وابن قتيبة إلى الرافعى ودراز على مدى عشرة قرون فى تلمسهم وجوهاً لتمثل إعجاز القرآن على نحو يلائم تنوع الأذواق ، والعقول ، وتطور العصور والثقافات بما ينتج عنها جميعا ثمرة واحدة هى اليقين فى أن ما بين دفتى المصحف لا يدخل فى طوق بشر ، ولا ينسب إلا إلى رب العالمين [٣] .

كل هذا التراث العظيم الذى اشترك فى تأليفه عشرات الأئمة على مدى ألف عام بل تزيد قضى عليه الخولى بأنه " الرأى الفائل " ، "والمذهب الزائف " .

فكيف يطلق هذا الحكم " الفائل الزائف " على تراث ما زال علماء الأمة ودارسوها إلى اليوم ينظرون إليه فيفيدون منه ، وينقبون فيه عن درر القرآن ولطائف نظمه ، وعجائب بيانه فتفتح لهم من كنوزه ما يقنع ، ويمتع ، ولا ريب أنهم يتخذون كلام السلف مفاتح إلى فقه جديد ، وتأمل جديد ينتج عنه ما يسد حاجة أهل زماننا ، ويغنيهم ويكفيهم .

ومن أبين براهين التناقض لدى الخولى ، وشواهد قهوره أن هذا المنهج الذى ذم أهله حين رصدوا وجوه إعجاز القرآن ، قد عاد فسلكه ذاته وقرر فى جلاء حاسم أنه بالأمور النفسية لا غير يعلل إيجازه وإطنابه ... وما قام من تعليل هذه الأشياء وغيرها على ذلك الأصل فهو الدقيق المنضبط ، وما جاوز ذلك فهو الإدعاء والتمحل ، أو هو أشبه شئ به "[٤]

---

(١) الضعيف الخطأ أ

(٢) مناهج ص ١٣١ .

(٣) ينظر : إعجاز القرآن البيانى بين النظرية والتطبيق د/حفنى شرف ط. المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٩٠/١٩٧٠م ، قضية الاعجاز القرآنى د/ عبدالعزيز عرفة عالم الكتب ١٤٠٥ هـ ١٩٨٥ م أولى

(٤) السابق ص ١٥٤ .

فها هو الشيخ يسلك المنهج ذاته ، ويعلل إعجاز القرآن بما عد أمثاله من أئمة الإعجاز مذهباً زائفاً فائلاً ويكفى هذا تخبطا وتناقضا ،وللبحث وقفة أطول ــ إن شاء الله ــ عند هذه النقطة .

ثم يعقب الشيخ دمدمته النكراء على القائلين بوجوه الإعجاز بكلام خفيف ، فقال : " ومما نغتبط له أن الذى يبين فساده ويحمل على أصحابه إنما هو بطل من أبطال البلاغة القديمة ، وفارس مقدم فى ميدانها ، وهو الإمام السكاكى ــ رحمه الله ــ فقد رفض القول بإمكان تعليل الإعجاز وبيان وجهه .. " .

ومن عجب أن يعقب الأستاذ بمثل قوله : " فعلى هذا الوجه الذى اهتدى إليه السكاكى أخيراً كما يقول ، وضم الذيل ما إن ينكره ، على هذا يكون طريق معرفة الإعجاز هو : تكوين الذوق والممارسة الأدبية للبلاغة على ما تقضى به أصول التربية الفنية الصحيحة[١].

وإنى لأعجب مما استخلصه الأستاذ وقرره عن السكاكى، لأن الوجه الذى نسبه إليه ليس مما فرق له عنه، ولا هو قد اهتدى إليه أخيراً كما عبر؛ إذ إن كون مدرك الإعجاز هو الذوق ليس إلا مما أجمع عليه الأئمة، بل لقد كان هو الوسيلة الوحيدة عند أهل القرون الأولى قبل بدعة "النظام".

وقد قرر الأستاذ شاكر مع الإمام الخطابى أن الذى أعان على هذا " هو حضور التذوق فى الأنفس حضورا واحداً حيا فى تذوق نظم القرآن وتأليفه ، وفى تذوق نظم الشعر .. " وقد أورد الخطابى قول سلفه عن الإعجاز : " وقد يخفى سببه عند البحث ، ويظهر أثره فى النفس حتى لا يلتبس على ذوى العلم والمعرفة به " [٢].

وقرر الأستاذ شاكر أن الباقلانى معاصر الخطابى " كان دائم الأوبة إلى الطريق الذى سلكه من قبله أبو عثمان الجاحظ ، وهو أن ينعت ما يجده فى نفسه من تذوق القرآن وبديع تركيبه ، وغريب نظمه ، ودقة رصفه ، وروعة بيانه .. "[٣].

فما ردده الباقلانى وعبد القاهر بعد أن أفرغ جهده فى نظرية النظم ، والعلماء من قبل ومن بعد إلى يوم الناس هذا = أمر طبعى ، وحال صدق مع النفس تجاه الأساليب القرآنية المعجزة

---

(١) مناهج ص ١٣١ .

(٢) ينظر البيان فى إعجاز القرآن ضمن ثلاث رسائل ص ٢٤ ت خلف الله سلام ط. دار المعارف ثالثة . مفهوم الإعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى د/ احمد جمال العمرى ٦١ ط. دار المعارف ١٩٨٤م

(٣) مداخل إعجاز القرآن ص ٨٧ .

يحلل العلماء ، ويعللون لكن عند التأثير الروحى للقرآن لا يستطيعون له تحليلاً ولا تعليلا ، فالقرآن ذاته سماه الله (روحاً من عندنا) فهو جليل من جليل ، وهذا واضح عند العلماء[١].

أما اتخاذ علمى المعانى والبيان وسائل لاكتساب الذوق بطول خدمة هذين العلمين على حد تعبير السكاكى ، فليس هذا من ابتكار أبي يعقوب ، إذ المطلع على مناهج الباقلانى ، وعبد القاهر ، والزمخشرى يتجلى أمام ناظريه وضوح منهج التربية الذوقية وغلبته على كتبهم ، بل إنه لسوف يوقن أن إرشادات هؤلاء الأئمة النظرية ، وتطبيقاتهم عليها لتفوق ما ذكره السكاكى بقدر ارتقائهم فوق السكاكى درجات فوق درجات .

ثم إن أبا يعقوب ــ رحمه الله ــ ليس من فرسان ميدان الإعجاز وإن اغتبط الأستاذ بما اغتبط ، وكل ما شارك به فى هذا المجال لا يزيد عن صفحات ثلاث كلها تقليد ، حتى فى قصر إدراك الإعجاز على التذوق ، كما سبق تقريره .[٢]

والرواية التى أوردها الخولى عن بعضهم : " لولا الأعرجان لذهبت بلاغة القرآن " تعنى اختصاص كل من الرجلين – الزمخشرى والسكاكى – بواحد من المجالين النظرى والتطبيقى ، وجلىٌ عند طلاب العلم أن الجانب النظرى الذى برز فيه السكاكى هو أصل البلاغة القاعدية التى أوسعها الخولى فى كتبه ومقالاته ذماً واستهجاناً !! فأنى يثنى عليه هنا ، ويرتضيه صنواً للزمخشرى الذى دبج فى الكشاف أعظم تفسير بلاغى فى تاريخ العربية ؟ !

ما مضى كان ذماً واستهجاناً من الخولى لمنهج تعليل الإعجاز ، مع رجوعه هو إليه كما سيبين فيما بعد ، ويزداد الدارس عجباً من كلامه عن موقف السكاكى ، وقد مرت الإشارة إليه .

ويتضاعف هذا العجب مختلطا بإحساسات ممضة حين نجد أن الخولى لم يكتف بهذه الدمدمة العامة ، فيخص أفراد الأئمة بنعوت قاسية على ما فيها من بهت وغرور .

ولم يسلم من هذا أعظم أئمة الإعجاز عبد القاهر الجرجانى ــ رضى الله عنه ــ صاحب أعظم مؤلف فى ميدانه " دلائل الإعجاز " فقد ناله نصيب وافر من النقد اللاذع ، حيث يقول الخولى فى سياق حديثه عن " الإعجاز " : " فهذه القضية التى يبدئ فيها عبد القاهر ويعيد فى " دلائل الإعجاز " والتى دفعه إلحاحه فيها ، وطول معاودتها إلى أن يفسد ترتيب الكتاب ، فلا تفرغ من

---

(١) البلاغة القرآنية عند الإمام الخطابى د/ صباح دراز ص ١٤ ط الأمانة ١٤٠٦ ــ ١٩٨٦م.

(٢) ينظر مفتاح العلوم ٦١٤- ٦١٦ ت / عبدالحميد هنداوى – ط دار الكتب العلمية بيروت - أولى – ١٤٢٠/٢٠٠٠م

مسألة النظم وقول فيها إلا عدت فرأيتها فى مكان آخر ، وحديث آخر ، وأحسست عناء عبد القاهر فيها وبها ، عناءً تنهد به عبارات الكتاب ، وينفثه أسلوبه " [١].

وقال عنه فى موضع آخر : " هو متكلم ، أو بليغ كلامى الدرس ، فى كتابه " دلائل الإعجاز " يعنى أولاً وأخيراً بقضية الإعجاز فقط ، وينصرف إليها فيه إنصرافاً تاماً ، فيجادل عنها جدلاً منطقيا بارز النزعة فى أسلوبه "[٢].

وحتى لا أطيل فى مناقشة هذه التقييمات العجلة الجائرة أحيل القارئ إلى توجيه الأستاذ محمود محمد شاكر لعدم ترتيب مسائل دلائل الإعجاز بأن الأجل قد وافى الإمام ـــ رضى الله عنه ـــ قبل النظرات الأخيرة التى يعنى فيها المؤلف بترتيب وتنسيق مباحثه وقضاياه ، وبسبب شغله بملاحقة شبه طائفة من المعتزلة كانوا من أهل العلم فى بلدته جرجان ، كان لهم شغف ، ولجاجة ، وشغب ، وجدال ، ومناظرة فى مسألة إعجاز القرآن [٣].

وكذا أحيله إلى توجيه الشيخ / محمد أبى موسى لهذه الظاهرة بأن ما لم يظهر فيه الترتيب عند عبد القاهر لكونه من الإلهامات التى تلقى فى قلب العالم فى أوقات شتى ، ومواطن متفرقة ، أما الترتيب والتنظيم فالمجال فيهما أوسع لمن يجيئ بعد أعمال الأئمة ومؤلفات المجددين . [٤]

وفى ضوء هاتين النظرتين يتراءى فساد ما أطلقه الخولى على معالجة عبد القاهر لقضية النظم فى الدلائل ، ودعواه إفساد ترتيب الكتاب .

وأما إطلاق الخولى أن عبد القاهر فى دلائل الإعجاز " يعنى أولاً وأخيراً بقضية الإعجاز ... " فهذا أيضا من الأحكام المجافية لروح العلم ومناهج التحقيق ، وكأن صاحب هذا الرأى لم يقرأ دلائل الإعجاز ، فضلاً عن أن يكشف له عن درره ولطائفة من الحقائق النقدية والبلاغية واللغوية التى ارتقى بها صاحبها إلى مصاف أعظم الخالدين فى هذه العلوم .

---

(١) فن القول ص ٩٨ .

(٢) مناهج ص ١٢٣ .

(٣) ينظر : تقديم شاكر لدلائل الإعجاز ص ط . دار المدنى بمصر والسعودية ، نشر الخانجى ط . ثالثة سنة ١٤١٣هـ ـــ ١٩٩٢م.

(٤) ينظر : مدخل إلى كتابى عبد القاهر ص ٨٤ ، ٨٥ ط وهبة سنة ١٤١٨هـ ـــ ١٩٩٨م. أولى .

وشواهد دعواى هذه ما أثبته الشيخ شاكر ـــ رحمه الله ـــ عن عبد القاهر أنه " انفرد وحده فى تاريخ آداب الأمم بتأسيس علم لم يسبقه إلى مثله أحد ، ولم يزل ما يتضمنه هذان الكتابان [الأسرار والدلائل] ساميا سامقا تَعْيَ أقلام الدارسين والكتاب عن بلوغ بعض ذُرَاه الشامخة ". (١)

وقال فى موضع آخر : " والذى فعله عبد القاهر فى كتابه " دلائل الإعجاز " هو أول تحليل للغة من حيث هى تركيب يحتمل ألوفاً من وجوه الأوضاع ، ودلالة هذه الأوضاع على المعانى المستورة التى يحملها كل تركيب ، ومزية كل تركيب فى اشتماله على وجوه البيان القائمة فى نفس المبين عنها ، وبهذا الكتاب وصنوه كتاب " أسرار البلاغة " أسس عبد القاهر علم تحليل البيان الإنسانى كله ، لا فى اللسان العربى وحده ، بل فى جميع ألسنة البشر ، وضع عبد القاهر هذا الأساس فلم يسبقه إليه سابق ، ولا لحقه من بعده لاحق فى لسان العرب ، ولا غير لسان العرب . (٢)

وقد عنى د / محمد أبو موسى بتوضيح ما أجمله الشيخ شاكر هنا ، وزاد عنه بذكر كثير من شواهد عبد القاهر فى " دلائل الإعجاز " (٣)

كما قرر عظمة عبد القاهر د / محمد مندور فى قوله : " وفى الحق إن عبد القاهر قد اهتدى فى العلوم اللغوية كلها إلى مذهب لا يمكن أن نبالغ فى أهميته ، مذهب يشهد لصاحبه بعبقرية لغوية منقطعة النظير ، وعلى أساس هذا المذهب كون مبادئه فى إدراك " دلائل الإعجاز " مذهب عبد القاهر هو أصح وأحدث ما وصل إليه علم اللغة فى أوربا لأيامنا هذه هو مذهب العالم السويسرى الثبت فردناندى سوسير " الذى توفى سنة ١٩١٣م"(٤).

هذا ، وقد فتن د / عبد العزيز حمودة بما انكشف له عن نزر مما أودعه عبد القاهر فى " الدلائل " حتى قال : " عقب نص عبد القاهر " أن ما يقتضى كون الشئ على الذكر وثبوت صورته فى النفس : أن يكثر دورانه على العيون ، ويدوم تردده فى مواقع الإبصار "الأسرار " قال رحمه الله : لم استطع أن أمنع نفسى من تأكيد كل كلمة فى نص الجرجانى لما يمثله النص كله من أهمية بالنسبة للتصوير المجازى ، والصورة الشعرية ، ومبدأ التجسيد الذى يجمع بينهما ، ليس فى البلاغة والبيان العربى ، أو حتى نظرية الأدب العربى فقط ، بل فى النقد الجديد والحداثى على السواء فى القرن العشرين ...

---

(١) مداخل إعجاز القرآن ص ٩٦ ، وينظر ص ٨٩ من المرجع ذاته .

(٢) السابق ص ١١٢ ، ص ١١٦ .

(٣) ينظر : مدخل إلى كتابى عبد القاهر ١٩٣- ٢٣١ ط اولى وهبة

(٤) النقد المنهجى ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ ط . نهضة مصر .بدون

وقد سبق أن قلنا ان الإنسان يضطر فى أحيان كثيرة وفى مواجهة نص كالنص العربى السابق أن بوقف نفسه عن الاسترسال حتى لا يتهم بالجنون "

وأمام الضعف الذى لا نستطيع إنكاره نحو عبقرية عبدالقاهر الجرجانى فالشواهد فى المرايا المقعره حتى الآن أقوى من أي إنكار "[1]

وحتى يتضح خطر هذا الكلام الذى أطلقه الخولى على عقول الدارسين ، فإنى أسجل — هنا — أن هذا الكلام الوخيم قد أضر بكثير ممن قرأه ، وأضله عن هذا السفر المتفرد فى عالم المؤلفات اللغوية والبلاغية والنقدية .

ولن أمثل لهذه الدعوى بذكر تأثير كلام الخولى على عقول صغار الدارسين أو كبارهم ممن غلب الأفن على عقولهم ، وران على بصائرهم ، بل سوف أثبت هنا ضرر كلام الخولى السابق على عالم له فى قلوب أهل العلم وشيوخ البلاغة والإعجاز مكانة وقدر ..

تذكر كلام الخولى السالف ، وعاين أثره فى تقرير د / شوقى ضيف — رحمه الله — عن صنيع عبد القاهر فى " دلائل الإعجاز " .

" وأخذ عبد القاهر بعد ذلك يطبق نظريته ، وأظهر فى تطبيقها براعة نادرة ، وهى براعة عقلية ، أو قل : إنها براعة فلسفية ، فكثير مما يقوله ليس أكثر من تحلات فكرية ، يظهر فيها التكلف الشديد ، ومع ذلك لا يزال بك حتى تؤمن بما يقول ، مع أنه لا يقول إلا تأويلات فلسفية لعل اللغة أبعد ما تكون عن أن تحتملها ".[2]

وهناك كلام أشد نقداً ، وأفحش خطأ قرره د / شوقى ضيف عن عبد القاهر فى قسوة مدهشة ، حول " النحو المعقد المتفلسف " يعوز تفنيده إلى بحث مفرد ، ولكنى لا أشك فى أن أصل كل هذا الفساد ما بذره الخولى فى نصيه السابقين .

---

(١) المرايا المقعرة صـ ٣٣٦ ، ٣٨٢، ٣٨٣ ط. عالم المعرفة ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م

(٢) النقد ص ٨٧ ، ٨٩ .

المبحث الرابع
تقييم الخولى لطوائف المتكلمين فى " الإعجاز "

لقد كانت قضية " إعجاز القرآن " من أعظم ما شغل به علماء الأمة لاسيما بعد كثرة اللغط الذى أثاره من ليس من أهل الاختصاص ، وأعنى بأهل الاختصاص العلماء الذين توارثوا حظاً من " التذوق " الذى كان هو الوسيلة الوحيدة والعظمى لفهم إعجاز القرآن فى العصور العربية الخالصة .

فمن ورث حظاً من هذا التذوق صفا كلامه عن إعجاز ، وسما فى مدارج هذا العلم ، وتبوأ منزلة عظيمة لدن أهله .

ومن حرم من ميراث التذوق لا يعد من أهل علم لأعجاز مهما أوتى حظوظاً وأنصباء فى علوم أخرى .

أدرك أهل التحقيق هذا فاصطفوا من كلام علماء الإعجاز ما بنى على هذا " التذوق " ، وطرحوا ما سواه ، ورازوا كلام العالم فى هذه القضية وحددوا مكانته بين أئمته فى ضوء هذا الميزان .

فعظمت أقدار الجاحظ ، والخطابى ، والرمانى ، والواسطى ، والباقلانى ، وعبد القاهر ، والزمخشرى ، والحرالى ، والبقاعى ، والرافعى ، ودراز ، وشاكر ، وأبى موسى .. على اختلاف أزمنتهم ، وتعدد مذاهبهم ، وتنوع مشاربهم ؛ لأنهم التقوا جميعهم حول " التذوق " وبنوا عليه رؤاهم تمثل إعجاز القرآن [1].

وقد تجد عدة من هؤلاء من المشاركين فى علوم الكلام ، المبرزين فى ميدانه ، كالجاحظ ، والرمانى ، والباقلانى ... ولكن العنصر الذى رفع أسهمهم فى مجالنا هذا هو حظهم من " التذوق " الذى طغى على تناولهم لهذه الحقيقة فاضفى على كلام رونقا ، وعمقا ودقة لم توجد فى مؤلفات نظرائهم من علماء الكلام المجردين عن " التذوق " أو الذين ضعفت لديهم هذه الآلة .

---

(١) ينظر مقدمة الطبعة الثانية من " البلاغة القرآنية فى تفسير الكشاف " د/ ابو موسى ط. وهبة ثانية ١٤٠٨/ ١٩٨٨م /ثانية ، والاعجاز القرآنى وجوهه وأسراره د/ عبدالغنى بركه ط. وهبه أولى ١٤٠٩ - ١٩٨٩م

ودونك تراث أئمة هؤلاء من شيوخ الفرق وروادها أمثال النظام ، والأشعرى ، والقاضى عبد الجبار [١] ومن فى طبقتهم وعلى مناهجهم لا تجد لكلامهم قيمة تدنيهم من مراتب الطائفة السالفة ، وإن بزّوهم فى طرائق الجدل وعلوم الكلام .

هذا فيما أظن هو معيار أهل التحقيق فى تصنيف وتقييم المشاركين فى قضية إعجاز القرآن ، فتجنبوا الأحكام العجلة ، وتساموا عن التقريرات الطائشة التى تقضى على فكر جيل بسطر ، وتسقط علم أمة بنظر زائغ ، وعقل كليل ..

فهؤلاء المتكلمون من أئمة الإعجاز الذين سردت أسماءهم منذ قليل هم من شموس هذا العلم وأقماره ، وكلامهم فى " الإعجاز " تنظيراً وتطبيقا جزء أصيل من تراث هذا العلم ، لا يجوز طمسه ، ولا يستساغ تشويهه لترغة فى النفس أو ميلا مع الهوى .

ومع هذا فقد نال هؤلاء المتكلمين المشاركين فى الإعجاز أذى كثير على لسان الخولى ، حتى لم يبق لهم فى هذا المجال إلا ما لا قيمة له فى ميزان التقييم والترجيح ... وذلك فى مثل قوله : " فمن شيعة هؤلاء المناطقة : المتكلمون ، وقد دفعهم عملهم إلى مسألة نقدية ذات بال ، هى مسألة إعجاز القرآن ، وكيف يفهم هذا الإعجاز ؟ وهل يعلل ؟ ، وإذا علل فبماذا ؟ .

وتلك ــ كما ترى ــ فنيات محضة ، لكنها لم تلبث أن انقلبت فى أيديهم على الزمن، وبتأثير العوامل العلمية والاجتماعية وغيرها فى حياتهم ، فإذا هم يسردون آراءهم فى ذلك سرداً منطقياً ، ويحاولون البرهنة عليها فى قضايا وأقيسة ، وإذا ما حاولت أن تفهم هذه الآراء فى إعجاز القرآن ، وتتميزها من حيث هى آراء نقدية أدبية ، عزّ عليك هذا ، ولم يتضح لك سبيله . [٢]

وأولى هذه الضلالات والأخطاء الواردة فى هذا النص عد " المتكلمين من شيعة المناطقة "

وثانيها تقرير أن منهج المتكلمين قد دفعهم إلى مسألة نقدية أدبية ذات بال وهى مسألة إعجاز القرآن .

---

(١) ينظر كلام النظام فى الملل والنحل للشهرستانى ٨٢ ت بدران ط. الأزهر الاولى ، وكلام الاشعرى فى مقالات الاسلامين ٢٩٦/١ ت محى الدين ط. بدون ، وكلام عبدالجبار فى الجزء السادس من المغنى ١٩٦ وما بعدها ت أمين الخولى ط. دار الكتب / وزارة الارشاد

(٢) فن القول ص ٨٣ .

فأما الخطأ الأول : فهو عده " المتكلمين من شيعة المناطقة ، بل قال فى موضع آخر ، " المتكلمون فلاسفة منطقيون " . (١)

والمحققون من مؤرخى الإسلام والعربية يفرقون تفرقة فاصلة بين المنطقى ، والفيلسوف ، والكلامى .

فالأولان عكفا على تراث اليونان من مهدهم إلى لحدهم ، وكانت اتجاهاتهم مبنية على أسس فكرية ، وعقدية ، وثقافية تجلت بأوضح صورة فى مناظرة العلامة " السيرافى " ــ رحمه الله ــ للقس " متى بن يونس " فى مجلس الوزير " ابن الفرات " كما أثبتها " أبو حيان التوحيدى " فى " الإمتاع والمؤانسة " . (٢)

وأكثر حوارات المناظرة حول " المنطق " وأسسه ، وفوائده المزعومة ،المتباهى بها من قبل القس ، وتفنيد السيرافى لها .

والأغرب أن يذكر السيرافى لمتّى تعقب أبى العباس الناشئ المعتزلى لترهات المناطقة ، وإفحامه إياهم وكشفه عوارهم ، فلم يحر القس جوابا .

وأجلى برهان على الفوارق الماثلة بين الطوائف الثلاث أن المناظر ، والمستدل بحاله ، والراوى : " السيرافى ، والناشئ ، والتوحيدى " ثلاثتهم متكلمون معتزلة ممن يتهم الأستاذ بوصف " الفلاسفة المناطقة " مع أن كلامهم فى المناظرة صريح فى وضع المنطق اليونانى حيث يستحق .

ولقد وضعت هؤلاء الأعلام فى صدر المحاجة ؛ لأن المعتزلة ــ عند الخولى وطه حسين ومن تقيلهم ــ أقرب طوائف المسلمين إلى المنطق والفلسفة .

فإذا كان هذا هو صريح موقفهم فكيف بغيرهم كأهل السنة الذين يمثل موقفهم ابن قتيبة فى تخطئته لمن أقحم قشور المنطق والفلسفة فى البلاغة والنقد والتفسير ، والشعراء الذين يمثل موقفهم البحترى حين ضج من محاولة بعض المفتونين باليونانيات تقييد الأدب بأغلال المنطق .. إلى آخر هذه المواقف الشهيرة التى تمثل موقف جمهرة العلماء والأدباء من هذا الوافد البغيض . (٣)

---

(١) السابق ص ٨١ .

(٢) ١٠٧/١ ــ ١٢٨ ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر المكتبة العصرية صيدا ــ لبنان ت . احمد أمين وأحمد الزين سنة ١٣٧٣ هـ ــ ١٩٥٣م.

(٣) ينظر : أدب الكاتب لابن قتيبة ص ٣ ، ٤ ت : محيى الدين عبد الحميد ط التجارية الكبرى رابعة ١٣٨٣هـ ــ ١٩٦٣ م. ، ديوان البحترى ٢٠٩/١ ت الصيرفى ط دار المعارف

وأما خطأ الثانى : فإنه إذا كان الخولى قد عد " الجاحظ [١] ، والباقلانى [٢] ، وعبد القاهر [٣] " من المتكلمين وعيه يتحقق فيهم ما قرره وكرره مراراً من خصائص " المدرسة الكلامية " فى البلاغة ... وأخصها بمقامنا هذا ما سبق إيراده من قوله عن عمل " المتكلمين " فى مسألة " الإعجاز " : " ... فإذا هم يسردون آراءهم سرداً منتقيا . ويحاولون البرهنة عليها فى قضايا وأقيسه ، وإذا ما حاولت أن تفهم هذه الآراء فى إعجاز القرآن ، وتتحيزها من حيث هى آراء نقدية أدبية ، عزّ عليه هذا ، ولم يتضح لك سبيله " . [٤]

فإن الثلاثة الأئمة هم فرسان ميدان دراسة الإعجاز ، لا السكاكى كما زعم الخولى ومع كونهم مشاركين فى علم الكلام ينسب متدرجة إلا أن ثلاثتهم رأس منهج فى فهم الإعجاز ، ولهم فى التمهيد لفهمه . وتحليله ، ونتائجه ما يعد سبقا فى مجال الدراسات النقدية والبلاغية .

فأما الجاحظ فيكفى فى تقيم الجانب البيانى من نظراته فى الإعجاز قول العلامة محمود شاكر : " وتدل الكلمات الباقية فى كتب أبى عثمان ، والتى ذكر فيها نظم القرآن ، وغريب تأليفه ، وبديع تركيبه على أمر مهم جداً ، هو أنه كان فى جميع ذلك يصف هذا التذوق الغامض الغامر السارى فى نفسه ، كان يصفه صفة المتأمل المستبطن لما يتذوقه ، لا صفة المعتزلى المتكلم المفسر لحقيقة هذا التذوق بالتقسيم والتبويب والتفصيل ، وكل كلماته دالة أبين الدلالة على أنه كان يستخرج من أعماق اللغة نعتا بعد نعت لأقصى ما يجده فى أغوار نفسه من أثر تذوق هذا الكتاب العربى ، المباين نظمه وتأليفه سائر تأليف الكلام العربى وتركيبه ونظمه . [٥]

وأما الباقلانى فهو الذى هدى فى دراسته لإعجاز القرآن إلى حتمية معرفة طرائق الشعراء ومذاهبهم ، ومعرفة تطور المذهب الشعرى للشاعر ، وتحديد عناصر الاحتذاء فى دراسة المذهب الشعرى ، والنمط وتنوعه بين الشعراء ، ورصد حركة الموهبة ، إلى غير هذا من المقاييس النقدية التى لا تجدها لدى النقاد الذين عكفوا على الأدب ونقده كالآمدى والجرجانى القاضى ، ومن قبله قدامة وابن طباطبا . [٦]

---

(١) ينظر : مناهج ص ١٢٣ .

(٢) السابق ص ١٠٧ .

(٣) السابق ص ١٠٤ .

(٤) فن القول ص ٨٣ .

(٥) مداخل ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٦) ينظر : مدخل إلى كتاب عبد القاهر ص ٣٣٢ ــ ٣٣٥ ، ومراجعات فى أصول الدرس البلاغى ص ٢٣١ .

وأما عبد القاهر فقد سبق تقرير عبقريته الفائقة فى ميادين الدراسات اللغوية، والنقدية، والبلاغية.[١]

فإذا كان كل هذا السبق ، والابتكار ، والوعى ، والإحاطة ، والنبوغ والعبقرية لهـؤلاء " المتكلمين " الثلاثة فيما فجوه ، وقرروه ، واستخلصوه ، وهم فى ميدان دراسة الإعجاز ، وأفـادت منه الدراسات النقدية والبلاغية الخالصة .

إذا كان هذا جليا واضحا فهل يليق أن يرمى فى وجوههم الكريمة بما يزعم فساد منهجهم فى دراسـة الإعجاز من مثل قوله السالف : " وإذا ما حاولت أن تفهم هذه الآراء فى إعجاز القرآن ، وتميزهـا من حيث هى آراء نقدية أدبية : عزّ عليك هذا ، ولم يتضح لك سبيله " .

والتحقيق أن مسألة " إعجاز القرآن " ذات شقين :

أولهما : عقدى ، يعنى بتقرير أن ما بين وقتى المصحف هو من كلام الله ـــ عز وجل ـــ وهو محتاج فى إثباته إلى حجاج لإلزام الخصم ببراهين عقلية ، وسعة أدلة لدحض شبهات أهل الزيغ والإلحاد .

وقد كانوا يشغبون ببث مفتريات حول الكتاب العزيز منذ نزوله إلى وقتنا هذا ، ولا يخفـى هذا فى عنوانات ومحتويات الكتب المؤلفة من قبل أئمة " الإعجاز " كالجاحظ ، وابن قتيبة ، والخطابى ، والباقلانى ، والإسكافى ، وعبد القاهر ، والغرناطى " .

ثانيهما : بيانى ، وهو ما سبق وأن نفاه الأستاذ عن أكثر الأئمة ، وثبت يقينا خطؤه فى هذا ، وتحقـق أن أئمة الدراسات الكبرى فى إعجاز القرآن كان التذوق البيانى هو محور بحثهم ووسيلتهم العظمـى التى نتج عنها عظمى النتائج وأخلدها ذكراً .

تقول د / بنت الشاطئ فى تقرير يناقض كلام أستاذها : " اختلفت مذاهب السلف من علمـاء الإسـلام فى بيان الإعجاز ، وتعددت أقوالهم فى وجوهه ، لكن إعجازه البلاغى لم يكن قط موضـع خـلاف ، وإنمـا كـان الجدل بين الفرق الإسلامية فى اعتباره الوجه فى الإعجاز أو القول بوجوه أخرى معه". [٢]

وقد عبر الخولى عن هذا الجانب البيانى بأنه : " أدبى نقدى " ، وأوثر ألا يطلق على التنزيـل المقدس مثل هذه المصطلحات التى دارت فى كتاب الشيخ دورات أخرى ، ثم استنبتت فى حقـول " الأمناء " فكان منها الخطايا الكبرى ، وأشنعها ما كتبه تلميذ الخولى : محمد أحمد خلـف فى رسـالته العالمية ، وبإشراف أستاذه : الفن القصصى فى القرآن " .

---

(١) ينظر البحث صـ ٢٠

(٢) الإعجاز البيانى ص ٧٩ .

ولقد كان الخولى متحملا وزر هذا العمل مرتين : مرة حين ألقى بذرتها فى كتابيه ، وأخرى حين تولى الإشراف عليها ، فجرأ الدارس على تقرير ما عَدّه أعضاء لجنة المناقشة خروجاً عن الاعتقاد الصحيح . (١)

ثم أن الخولى إذا ما قصد إلى الاستدلال على منطقة مسألة " إعجاز القرآن " ساق أقوالاً من كلام الشاطبى بشرح الجرجانى فى سرد مذاهب تعليل الإعجاز وهى : النظم الغريب والأسلوب العجيب .

- كونه فى الدرجة العالية من البلاغة التى لم يعهد مثلها .
- مجموع الأمرين : أى النظم الغريب ، وكونه فى الدرجة العالية من البلاغة " .

وقد علق على صنيعهم هذا بقوله : " فتحاول أن تعتبر النظم والأسلوب شيئا غير البلاغة العالية ، حتى يعلل الإعجاز بهذا مرة ، وبهذه تارة ، وبمجموع الأمرين طوراً ، فلا يستقيم لك هذا فى نظرة أدبية أو بلاغية " . (٢)

وكل من له اطلاع متواضع على تاريخ الكتابة فى علم " الإعجاز " يدرك أن هذين العالمين ـــ على فضلهما ـــ ليسا من رجال هذا الميدان ، وأن مجرد إيرادهما ذروا من أقوال أهل العلم فى كتابهما لا يرقى بهما إلى أن يسلكا فى نظم علماء هذا العلم .

وعليه فيسقط الاستشهاد بكلامهما على ما قصد إليه الأستاذ .

وأفاعيل الخولى فى كتابيه ترجح الظن بأنه قصد إلى هذا قصداً ؛ ليسهل الوصول إلى غايته فى الدمدمة والانتقاص ، وإلا فبين يديه من الكتب التى طالعها ، ودوّن عنها ملحوظات فى كتابيه =كثير مما استقر ، وحقق ، من الوجوه الواضحة الجلية ، والبراهين الساطعة المنيرة ، والتحليلات الرائقة المعجبة ، واللفتات الهادية الدقيقة لدى كلٍّ من :

ـــ الجاحظ : ت ٢٢٥ هـ ، فى كتابه نظم القرآن . (٣)

ـــ ابن قتيبة : ت ٢٧٦ هـ ، فى كتابه : " تأويل مشكل القرآن " . (١)

---

(١) ينظر : تقديم الخولى للرسالة المرفوضة : الفن القصصى فى القرآن الكريم هـ – ل

(٢) فن القول ص ٨٤ .

(٣) رجح د / حفنى شرف أنه يوجد بعض مباحث من هذا الكتاب مما طبع على هامش الكامل للمبرد فى مطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٣٤هـ . تحت عنوان الفصول المختارة من كتب الجاحظ .

ـــ الرماني : ت ٣٧٤ هـ ، في رسالة : " النكت في إعجاز القرآن " .

ـــ الواسطي : ت ٣٠٦ هـ ، في كتابه " إعجاز القرآن " .

ـــ الباقلاني : ت ٤٠٣هـ ، في إعجاز القرآن .

ـــ عبد القاهر : ت ٤٧١ هـ ، في دلائل الإعجاز والرسالة الشافية .

ـــ الزمخشري : ت ٥٣٨هـ ، في تفسيره الكشاف .

وغيرهم ممن تشهد كتاباتهم بعكس ما قضى به الخولي في دمدمته السالف ذكرها ، وقد مر إيراد بعض المقولات والخلاصات المضيئة التي تكشف عن المنهج الفني التذوقي الذي سار فيه هؤلاء الأئمة مع مشاركتهم في علوم العقيدة والكلام بنسب تقل وتكثر .

أما ما ذكره الشاطبي ، والجرجاني واقتصر على إيراده الخولي فهو مما خصه علماء العقيدة في المسألة على منهجهم ، وبأسلوبهم ، عرضاً دون قصد تفصيل أو تمحيص أو اجتهاد وكما صنع القاضي عياض ، ومن قبله أبو الحسن الأشعري ، ومن بعدهما الشاطبي والجرجاني .

وهؤلاء ـــ على إمامتهم وفضلهم ـــ ليسوا من أهل الاختصاص في هذا العلم ، ولم يتوفروا عليه ، بل وفوّا فيما نصبوا أنفسهم له .

وكلامهم لا يعتمد عليه في التقرير ، والتحقيق ، والتحرير .

وهذا إن دل فإنما يدل على أن الأستاذ الخولي لم يوف بشرطيه الذين سجلهما نصحاً لمن أراد أن يجدد التراث ، وهما :

الإخلاص ، وإحسان الظن بالتراث كما قرر هذا في بيان جهير موثق : " وفي هذه السبيل [أي : التحلية والتجديد] نظل مخلصين لقديمنا ، حسني الظن به ما وجدنا إلى ذلك سبيلا فنلتمس خيره ، ونجلو ما فيه من محاسن ، قبل أن نلتمس لهذه البلاغة زياً غريبا ، أو سمنا دخيلا أو زينة من تطرية الآخرين . (٢)

---

(١) سرت في هذا عدا ابن قتيبة من المتكلمين على منهج د / بدوي طبانة في " البيان العربي " ص ٢٧ وإن كنت أميل إلى عده من المحدثين وأهل السنة مثل الخطابي .

(٢) في القول ص ١٧٧ .

ثانى الشرطين : ما قرره فى مجال تجديد التراث من قوله : " أن أول التجديد قتل القديم فهما ، وعلى الأساس السليم المتين من القديم نفهم ما نقصه من ظواهر التقدم الفنى الحديث " . (١)

أقول : إن الخولى لم يوف بشرطيه ، حيث إنه لم يصبر على قراءة القديم فيقارب فهمه فضلاً عن أن يقتله فهما ، كما فعل الرافعى . ودراز ، وشاكر ، وأبى موسى ، وحمودة . (٢)

كما أنه لم يحسن الظن بالقديم ، إذ إن خلاصات كتابيه ، وبحوثه ، ومقالاته كانت ، ومازالت تصد طلابه عن قراءة كتب التراث البلاغى وتغريهم بالاستهانة بها ، والمجازفة فى عيبها وانتقاصها ؛ لأنهم قرأوا فى خلاصات بحث " رائدهم " عن البلاغة العربية :

" ونستطيع إذا ما تأملنا فى هذه الصورة البلاغية عندهم بعد تصورها فى وضعيها : الإفرادى والتركيبى أن نشعر بأنها : صورة وجه معروق بادى العظام ، شاحب ، يسير الحظ من الحيوية والنضرة " .

وأعتقد أن هذا التصوير المنفر قد أدى غرضه ، حيث صد الدارسون العرب عن تراثهم البلاغى والنقدى ، ولم ينظروا إليه إلا بعين الانتقاص ، والاستهانة، والاحتقار .. فكيف ، وقد عقب هذا بقوله ، مغريا بالتراث البلاغى الغربى :

" ويزداد شعورنا بقلة حيوية هذه الصورة ، وعدم جمالها إذ ما سمعنا حديث غيرهم عن هذه البلاغة ، ودرسها ، وصورة ذلك عندهم ، فاستمع لطرف من تصوير الغربيين للبلاغة .. " . (٣)

فهل فى هذا ما يدل على حسن الظن بالتراث ، والإخلاص له ، والصبر على قراءته فضلا عن قتله فهما " ؟!! .

---

(١) مناهج ص ٩٧ ، وينظر : فن القول ص ١٤٢ ، وقرر مثل هذا فى حديثه عن منهج الجاحظ : مناهج ص ٢٦٣ .

(٢) يراجع : بالترتيب كل من إعجاز القرآن للرافعى ٢٣٨ وما بعدها ط. التجارية الكبرى ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م ثامنة .ودستور الأخلاق١٢٥، ٢٤١ ، ٤١٣ ، ٥٧٧ من القرآن ، والنبأ العظيم لدراز٧٦ ، ومداخل إعجاز القرآن لشاكر ٦٩. ، ومراجعات فى الدرس البلاغى لأبى موسى ١٥٩-١٨١، والمرايا المقعرة لحمودة ١٩٧.....

(٣) فن القول ٤٠

ثم بعد هذه الدمدمة من الأستاذ الخولى على من أسماهم " المتكلمين ، المناطقة ، المتفلسفين " من علماء البلاغة والإعجاز عاد ليسحب مذمته على طائفة أخرى هم : " الأصوليون " ، فقال :

" وإلى جانب هؤلاء المناطقة تجد الأصوليين الذين سمعت وصف السكاكى لصنيعهم وأن معظم أبواب أصولهم الفقهية إنما هى من أبحاث علمى المعانى والبيان . "

ثم هم قوم ذهبوا يحاولون فهم القرآن ، والنفاذ إلى دقائق معانيه ليتخذوا نصوصه أساساً لتشريعهم العملى القضائى ، كما أنهم إلى جانب ذلك كله قد وقفوا وقفة خاصة عند البحث فى الحسن والقبح " .

وقد حكم عليهم بأن أخص سمات منهجهم هو " إصدار الأحكام العقلية فى موضوع وجدانى " . (١)

ويقول فى موضع آخر : " وهؤلاء الأصوليون " كما نعرف إنما غايتهم من هذا الدرس كله أن يخدموا الجانب العملى من الاجتهاد فى استخراج الأحكام ، واستعمال القياس فى ذلك ، على أساس من التنظيم المنطقى فى هذا الاستنباط ، وذلك القياس ، فهم أدنى إلى الأسلوب العقلى المنطقى ، يلونون به مباحثهم ، ويستمدون منه نظراتهم ، ويتضح ذلك جليا فيما توسعوا فيه من أبحاث العلة فى باب القياس ، كما أنهم إلى جانب هذا تأثروا بالفلسفة فى نواحٍ كثيرة " . (٢)

وأقول : إن قراءة هذا النص تبرز فيه الملحوظات التالية :

إن الخولى ــ هنا ــ قد وقف عند متأخرى الأصوليين ، كما صنع فى دراسة البلاغة ، ولم ينتفع بمطالعة الدراسة الفذة التى دبجها محمد بن إدريس الشافعى ت ٢٠٤هـ ــ رضى الله عنه ــ فى " الرسالة " .

وقد فرق له ــ رحمه الله ــ فيها عن فقه بيانى دقيق ؛ فكانت نظراته ورؤاه ووسائل الاستنباط عنده بمثابة القواعد الأولى التى أرسى عليها علماء الأصول فى كافة المذاهب الفقهية مؤلفاتهم فى هذا العلم الشفيف ، الذى يمثل أرقى وأدق مناهج تحليل النصوص فى تاريخ الإنسانية ،

---

(١) فن القول ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) القول ص ٧٤ .

وإن كان فى صياغته دقة وعمق ، لا يصطبر على قراءته النافعة إلا من منح صبر شيوخه ، وانقطاعهم ، وإخلاصهم ، ولا مكان عندهم لكل عجل ، مغتر ، جرئ .

ولعل فى إشارات شيخنا أبى موسى [١] ، ومؤلفات د / محمود توفيق [٢] ما يكتر شواهد قوية على ما أزعمه ، بما يغرى الدارسين بمواصلة البحث فى هذا الميدان العظيم ، الذى افترى عليه من قبل الدارسين المحدثين .

ثانى الملحوظات فى نص الخولى السابق عن الأصوليين أنهم " ذهبوا يحاولون فهم القرآن والنفاذ إلى دقائق معانيه ليتخذوا نصوصه أساساً لتشريعهم العمل القضائى " .

وأقول ــ أيضا ــ أن فهم القرآن والنفاذ إلى دقائق معانيه " عمل بلاغى دقيق واع استخدم فيه أئمة الأصول أدق مناهج التحليل بوعى ، وحذر ، وصبر لا تجد له نظيراً فى أى منهج مماثل ، وذلك لإدراكهم أن أى خلل فى الفهم سوف يترتب عليه أهدار حكم مما أمر الله به ، أو إيجاب ما لم يوجب الله وكلا الأمرين مروق وفسوق عن بيان مراد الله فى كتابه على الوجه الصحيح .

أما أن عمل الأصوليين كان يتغيا غرضاً تشريعيا لخدمة العمل القضائى ، فهذا يقودنا إلى إصرار الخولى على إبعاد الغايات القرآنية من أغراض منهج البلاغة الحديثة .

• (١) ينظر : مراجعات فى أصول الدرس البلاغى ص ٣١٠ .، ومستهل تقديم الطبعة الثانية من " البلاغة القرآنية فى تفسير الكشاف " ط وهبه . ثانية .

• (٢) دلالة الألفاظ عند الأصوليين ط . الأمانة ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧ م فيما يزيد على الأربعمائة صفحة ، وسبل الاستنباط من الكتاب والسنة ط الأمانة ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٢ فيما يزيد على الخمسمائة صفحة .

المبحث الرابع

إصرار الخولى على إخرج الغايات القرآنية من أغراض منهج البلاغة الحديثة

من أبرز ملامح التجديد البلاغى التى أوردها أمين الخولى إلحاحه المتكرر ، وحماسه الشديد على فصل العمل البلاغى الحديث عما أسماه بالغرض الدينى ، حيث قرر فى خلاصات " فن القول" ان من التخلية ألا تلزم دراستنا الطابع الدينى الذى لزمها يوم كانت غايتها معرفة إعجاز القرآن " [١]

ويقول: " وغايات البلاغة اليوم غايات لا تلتمس لغيرها من أغراض أخرى وراءها دينية كانت أو سواها ".[٢]

وإن الدارس ليدهش تجاه هذا الإصرار على إبعاد الغايات القرآنية عن حقل البلاغة المعاصرة ، لاسيما حين يقرأ ما قرره الخولى فى صدر مبحثه من " أن غاية البلاغة فى أمه تتصل بغاية تلك الأمة فى حياتها ، وتتجه نحو هدف تلك الجماعة فى وجودها ".[٣]

على أنه مما يجب تبيانه هنا أن الأئمة الذين ربطوا الدرس البلاغى بالغايات القرآنية لم يقفوا فى مناهجهم عند محاولة معرفة وجه الإعجاز ، فهذا الغرض ـــ على شرفه ـــ إلا أنه أضيق ميادين الدراسات البيانية للكتاب المبين .

فغاية الدراسات الدائرة حول القرآن الكريم تتمثل بإجمال فى استنباط مناهج الهداية الإلهية من القرآن فى كافة مناحى الحياة ، من عقيدة ، وتشريع ، وسلوك ، وكافة ما يعمر به المسلم دنياه توصلاً إلى رضا ربه فى الدنيا والآخرة .

ثم إنه من البدهيات المقررة أن مفتاح فقه القرآن واستبانة مناهجه ، وتحديد معالم صراطه المستقيم لا تتضح ولا تتم إلا بفقه بيان العربية ، وإتقان طرائق الإبانه ، وتحصيل وسائل استكناه دلالاتها فى الصوت ، والمفرده ، والتركيب ، بله القصيدة ، وشعر الشاعر ، حتى يكون معينا وعاصماً فى سياق استنباط مناهج الهداية المشار إليها سلفا ، دونما زيغ أو شطط يفرق منهما كل من له قلب لاسيما أهل العلم الراسخين .

---

(١) فن القول ٢١١

(٢) فن القول ص ١٥٦ ، وينظر : مناهج ص ١٤١ .

(٣) فن القول ص ١٤٦ .

وكان الأئمة الأوائل وهم فى حومة الدراسات القرآنية المتنوعة تتبلج بين أعينهم ، وفى بصائرهم حقيقة إعجاز القرآن الكريم ، يستشعرونه وهم يحللون آيات العقيدة كما يتعمقونه وهم يستنبطون فى مباحث التشريع ، ويستلهمون لوامع السلوك ، وبقية معانى القرآن الكريم .

وعليه : فإن هذا التبلج الواضح لحقيقة إعجاز القرآن كان مصاحبا دارس القرآن فى كل علم وفن منبثق عن القرآن ، وليس خاصاً بدارس الإعجاز فقط ، كما أن التذوق البيانى كان متحققا فى أعلى وأدق صوره فى كافة الدراسات التى دارت حول القرآن ، ومراجعات لطائف البيان ودقائق البلاغة التى وقف عندها علماء العقيدة والتشريع والسلوك والأخلاق تقرر هذه الحقيقة لاسيما فى الذى فتح به على سيبويه ، والشافعى ، والرمانى ، والباقلانى ، والإسكافى ، وعبد القاهر ، والغزالى ، والحرالى ، والبقاعى ، ودراز ...

وفى هذا كله ما يقرر أن الدراسات البلاغية ذات التحليل الذوقى كانت أوسع مدى وأرحب مجالا من أن تحدّ بهذا القيد الضيق الذى حدها الخولى به .

كما أن " الغرض الدينى " الذى ينفر منه الخولى ، و ينفّر عنه إنما هو متصل بغاية الأمة فى حياتها التى ترتبط طرداً وعكساً ــ بالقرآن ــ ، ومتصل كذلك بهدف هذه الأمة فى التمسك بهدى القرآن بعد استبانة حقائقه ، وركائزه فى كافة مناحى الحياة .

فإذا ما أردنا تنفيذ وصاة الخولى بـ " ألا تلزم دراستنا الطابع الدينى الذى لزمها يوم كانت غايتها معرفة إعجاز القرآن " .. إذا رغبنا فى إنفاذ هذه الوصية فليس أمامنا إلا أن نطمر كل كتب التراث الإسلامى حول القرآن التى تتخذ من دراساته البيانية تحقيق غايات الهداية فى جوانبه العقدية والتشريعية .... الخ ، إذ إنها كلها تدور فى هذا الفلك ، وتتغيا الوصول بالمؤمن إلى يقين الاعتقاد فى ربانية القرآن من خلال استبانة إعجازه من كافة هذه النواحى المتعددة .

ويقتضى هذه الوصية أيضا فعلى الأمة أن تبحث لها عن غاية فى حياتها ، وهدف فى وجودها يكونان بعيدين عن القرآن ، وفقه بيانه ، وتذوق إعجازه المثبت ربانيته ، الكاشف عن مسالك هدايته ، حتى نتخلص من تلك " اللاهوتية الضيقة " التى ينفر منها الخولى ، ويجاهد مخلصا على أن يبعدنا عنها !!! .

هذا .. ومن أخطر نصوص الخولى المتكاثرة حول هذه الدعوة تقريره أن : " من أوجه التغيير ما أصبحنا نشعر به من فصل هذه الدراسة الأدبية عن المؤثرات الدينية الخاصة ، شعوراً بأن للحياة حاجات وحاجات ، وراء تلك الهينات التى كانوا يتدارسون من أجلها اللغة وموادها . والأدب وعلومه ، وهو شعور قد يتصل برغبة عامة فى تخليص الحياة من تلك الموجهات اللاهوتية فى أضيق معانيها ، وهاتيكم التحكمات التى ينعزل أصحابها عن الحياة .

وعلى أساس من الرغبة الواضحة أو الباطنة قد فُصلت معاهدكم عن تلك اللاهوتية وطلب إليها أن تجدّ فى سبيل تحقيق الأهداف الاجتماعية التى تبغيها الأمة من حياتها اللسانية[1] .

ومن يتأمل هذا النص بين النصوص المقاربة يجده الأخطر على الإطلاق ، سواء تلك التى أوردها هنا أو أهملت إثباتها خشية الإطالة والإملال .

فمستنكر جداً أن يقول الخولى : " إن للحياة حاجات وحاجات وراء تلك الهينات التى كانوا يتدارسون من أجلها اللغة وموادها ... " سيما وأن هذا القول البشع أثبت بين مقولات مفادها أن دراسة المسلمين للغة ذات غرض دينى فى المقام الأول ...

فمفهوم هذا أن الغرض الدينى المتغيا من دراسة العربية من تلك الهينات بما فيه من إثبات إعجاز القرآن المقتضى ربانية مصدره ، كذا تفسيره ، واستنباط أحكامه فى ضوء قواعد " الأصول " ... كل هذا من " الهينات " !!! .

وأخطر من هذا ما ورد فى الفقرة التالية من قول " رائد الأمناء " : " وعلى أساس من الرغبة الواضحة أو الباطنة ... ، فهذا تصريح بأن هذه المؤسسات التى يعد " معهده للدراسات العليا " واحداً منها أسست لتحقيق رغبات واضحة معلنة تصرح بها الدعاية ، ويجهر بها فى المحافل ، وتدون فى اللوائح الرسمية .

وأخرى " باطنة " على حد تعبير الخولى ، يعلم الله ما دبِّر فيها ، وبها ، ولها ..

على أن فى الفقرة ذاتها ما يشير إلى تحديد إطارها العام ، وغرضها الرئيسى فى قول كاتبها : " وهو شعور قد يتصل برغبة عامة فى تخليص الحياة من تلك الموجهات اللاهوتية فى أضيق معانيها .. !! .

---

(١) فن القول ص ١٥٨ .

وهذا فيما أعتقد : غرض الأغراض ، وغاية الغايات من إنشاء مثل هذه المعاهد والمؤسسات التعليمية ، وابتعاث الدارسين ، واستقدام المنصرين " المستشرقين " وإصدار المجلات ، وعقد المؤتمرات والندوات ... إلى آخر ما أغرقت فيه بلاد العرب ، والمسلمين من تدابير ظاهرة وخفية ، ليس لها من غاية أهم ولا آكد من تخليص الحياة من تلك الموجهات اللاهوتية " !!!

ولعل فى هذا ما يكفى فى تعليل تكرار هجوم الخولى بحماس وإصرار على الغرض الدينى المبتغى من وراء الدراسات البلاغية خاصة ، واللغوية عامة ، وتزييف أقوال أئمة الإعجاز فى توجيهه ، مع أن كتابيه يشهدان أنه لم يصبر على قراءة صحيحة لواحد منهم .

ويشهد لما أدعيه دلالة بناء الفعلين للمجهول فى النص السابق " فُصلت ، وطُلب " ففيها إشارة مؤكدة إلى أن هذه التدبيرات أمر مفروض ممن له السطوة ، والغلبة ، والأمر والنهى ... وأن ليس للأستاذ ومن معه إلا تحقيق " الفصل " ، وتنفيذ " الطلب " .

وفى ضوء هذا تمحى كل قيمة مما تباهى به الأستاذ فى كتابيه وبحوثه ومقالاته من ريادة التجديد ، والتحديث ، والتطوير ، والرغبة فى النهوض بالبلاد فى كافة مناحى الحياة العلمية ، والأدبية والثقافية ... وأن دعوته للتجديد اللغوى والبيانى جانب مهم من هذه الجوانب . [1]

أقول : تمحى كل القيم المعلنة طالما أنها تدخل ضمن ما " طُلب " ، ومن أجلها قد " فُصل " هذا التطوير عن " التحكم اللاهوتى " يقصد دراسة التراث الإسلامى بكافة فروعه العقدية، والشرعية ، والعربية ، والتى عنى بها الأزهر الشريف ومناهجه .

(١) يراجع منهاج تجديد ١٠٩ ، وفن القول ١٨ ..

المبحث الخامس

دعوة الخولى إلى إغلاق باب الاجتهاد والتجديد فى دراسة الإعجاز القرآنى

تتمه لما سبق من الإصرار على فصل البلاغة العربية عن الغرض الدينى تأتى دعوة الخولى إلى صرف الدارسين عن الاجتهاد والتجديد فى دراسة مسألة الإعجاز القرآنى معللاً " بأن مسألة الإعجاز نفسها قد قيل فيها ما يعده أصحاب الدين ، والأغراض الدينية اليوم كافيا مغنيا ، وما أحسب أن لديهم جديداً يزيدون عليه ، فيتبعون دراسة البلاغة تحقيقا لغاية دينية فى تصحيح اعتقاد الناس بالقرآن وسماويته . [1]

فمن العجب العاجب أن يتزعم الخولى " المجددين " ويكتب لهم " مناهج تجديد " ، ثم يدعوهم إلى ما فيه إغلاق باب الاجتهاد ، ويصدهم عن " التجديد " فى دراسة " إعجاز القرآن " مثبتا علتين لهذا التوجيه الشاذ :

أولهما : أن مسألة الإعجاز نفسها قد قيل فيها ما يعد كافيا مغنيا " .

ثانيهما : أن أصحاب الدين والأغراض الدينية ـــ على حد تعبيره ـــ ليس لديهم جديد يزيدونه على ما قاله القدماء " .. هكذا !!!

وإنما قلت إنه " عجب عاجب " بل " مستكر مستبشع " لأن الذى يتصفح " مناهج تجديد " يجده قد أثبت فى عنوانه أنه يفتح باب الاجتهاد فى النحو ، والبلاغة ، والتفسير ، والأدب ، وأن صاحبه قد اقتحم كل الحصون ، وتجرأ حتى على الثوابت ، ويكاد يشمل عيون الأئمة فى هذه العلوم وفروعها باللمز والتعريض ، بل والتصريح طعنا فيما قرروه ، جهراً بوجوب إعادة النظر فيه ، وتطوير مناهجهم وأقوالهم بما يلائم روح العصر ، مع أن فيها علوماً ومسائل تعتمد أساساً على الرواية والنقل ، ومع هذا فإنها لم تسلم هى ولا أصحابها من " النبذ ، واللمز " والدعوة إلى تجديدها تلازماً مع روح العصر .

وفى ضوء هذا فإنى لا أجد وجهاً واحداً ولو ضعيفا يقنع من به طرْق بالعلتين اللتين وجه بهما الشيخ دعوته إلى إغلاق باب التجديد فى مسألة الإعجاز .

---

(١) فى القول ص ١٥٧ .

فأصحاب الدين والأغراض الدينية اليوم [١] لم ولن يعدوا ميراث دراسة الإعجاز كافيا ولا مغنيا ، لسبب جهير يقيني ، أرشدهم إليه الصاحب الأعظم للدعوة ﷺ في حديثه الصحيح عن القرآن : في قوله عنه :﴿ لا تنقضي عجائبه ﴾ .

ولا ريب أن " عجائب القرآن " بمعنى وجوه ودلائل إعجازه المتواترة من لدن تنزله إلى آخر الدهر هي التي أغرت علماء كل عصر بتجديد النظر في تجلية هذه الوجوه ، ورصدها بتلك الدلائل حتى تظل حجة الله على عباده بالقرآن قائمة كما أرادها الله ـــ سبحانه ـــ وسخر لها أهل الرسوخ والإخلاص من علماء أمة القرآن .

ولعل في صنيع الأستاذ ما يعد حجة عليه حين حاول التجديد في لحظ وجهين جديدين في تعليل الإعجاز ، هما ما أسماه : الإعجاز النفسي ، والإعجاز الفني . [٢]

بل إن في تقديمه لهذين الوجهين نصوصاً صريحة على أن مسألة الإعجاز " قضية نقدية قديمة خالدة "[٣] ، " ونقدر ما كان ـــ ولا يزال ـــ لها من خطر أدبي وخطر ديني ".[٤]

فصريح كلامه أن هذه القضية " خالدة " على مر الدهور فهذا مناقض تماماً لدعوته لإيقاف البحث فيها ، وطالما أنه يقدر أن خطرها وأهميتها في الدراسات الأدبية والدينية لا يزال باقيان فكيف يدعو إلى إغلاق باب الاجتهاد والتجديد فيها ، ويلح على صرف العقول والبصائر عن استجلاء دقائقها ورقائقها .. وفيها ما يقوى اعتقاد المسلمين في سماوية القرآن ، ويجلّي أمامهم مناهج هدايته ، ويمتع أحاسيسهم بروعة بيانه المعجز ، وسحر بلاغته الآسرة .

أفليس في هذه ، بل في بعضها ما يلزم بمداومة النظر والتدبر ، ومواصلة البحث والدرس ، في هذا العلم الشريف ، تحقيقاً لهذه الأغراض الشريفة أو بعضها تلاؤماً مع التجدد الفكرى والنفسي والعلمي والاجتماعي الذى شمل كل أهل الأرض ، إن طوعاً وإن كرهاً .

---

(١) أى : يوم كتابة مقولاته هذه في ١٣٦٦هـ ، ١٩٤٧م حسب تاريخ مقدمة " فن القول " .

(٢) ينظر : مداخل ص ٢٥٤ ـــ ٢٥٥ .

(٣) السابق ص ٢٥٤ .

(٤) السابق ص ١٥١ .

وإذا كان ما مضى كافياً فى رد دعوة الخولى إلى إيصاد أبواب دراسة الإعجاز ، فإن هنالك أمراً هو بمثابة الفرض الدينى الكفائى الذى يأثم المسلمون جميعاً إن لم تقم به طائفة منهم ، وهو على من أوتى الموهبة والعلم فرض عين ، ذلكم هو الرد على ملاحدة العصر الطاعنين فى سماوية القرآن ، وصدق أخباره ، وصواب أحكامه وتشريعاته .

قال الأستاذ رشيد رضا ــ رحمه الله ــ فى تقديم كتاب " إعجاز القرآن للرافعى " فالكلام فى وجوه إعجاز القرآن واجب شرعاً ، وهو من فروض الكفاية ثم قال عن كتاب الباقلانى وغيره : " فإن كان ذلك قد وفى بحاجة الأزمنة التى صنعت فيها تلك الكتب ، فهو لا يفى بحاجة هذا الزمان ... " (١)

ويقول الرافعى فى وجازة جامعة بعد عرض كتاب الباقلانى : " وبالجملة فقد وضع ما لم يكن يمكن أن يوضع أوفى منه عصره ، بيد أن القرآن كتاب كل عصر ، وله فى كل دهر دليل من الدهر على الإعجاز ، ونحن قد قلنا فى غير الجهات التى كتب فيها كل من قبلنا ، وسيقول من بعدنا فيما يفتح الله به ... إن ذلك على الله يسير " . (٢)

فلو قدر أن أهل الطعن من أعداء القرآن كفوا عن تجديد إيراد طعونهم وتشكيكهم فى ربانية القرآن ، وإلقاء الشبه حول بيانه الشريف ، لكان لدعوى الشيخ : عدّ ما قاله القدماء " مغنيا كافيا " وجه ..

أما وإن الحرب الشعواء التى يشنها أعداء الإسلام على كتابه المعجز مازلت مستعرة — زمان الخولى وزماننا هذا — بل انها تزداد انتشاراً ، ومجاهرة كل يوم ، حيث فتح لها التقدم فى وسائل النشر والاتصالات والفضائيات ما جعلها تدخل كل بيت ، وأمام عينى كل مبصر ، وبين يدى كل قارئ ... إذا كان الأمر كذلك فإن من يدعو إلى الكف عن تجديد النظر فى شأن الإعجاز ، والاكتفاء بما قاله القدماء ، والتهوين من شأن الغاية المقدسة من موالاة الدراسات حوله كأنه يريد صرف الناس عن القرآن ، ويغريهم بهجره ، وترك تدبره .

وفى هذا ما فيه مما يستشنع وتستعظم كبيرته عند كل من كان له قلب واع ، أو عقل رشيد . !! .

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٧

(٢) إعجاز القرآن ص ١٧٣

على أن أهل العلم من قبل الخولى ومن بعده ، حالاً ومقالاً قد كانوا على غير ما دعا إليه الخولى ، ولج فيه .

فأما الرفض القول فيكفى فيه إيراد مقولة تلميذته الأثيرة د / بنت الشاطئ فى تقديمها لكتابها : " الإعجاز البيانى " : " من إعجاز القرآن أن يظل مشغلة الدارسين العلماء جيلاً بعد جيل ، ثم يبقى أبداً رحب المدى ، سخى المورد ، كلما حسب جيل أنه بلغ منه الغاية امتد الأفق بعيداً وراء كل مطمح ، عاليا يفوت طاقة الدارسين . (١)

وقالت فى موضوعية تستدرك على كلام أستاذها : " ونبدأ نحن من حيث انتهى السلف ، وتراثهم بين أيدينا علامات على الطريق ، لا نغض من قيمته ، ولا نحط من أقدار أهله ، وإنما نرى فى كل منهم جهد عصر ، ومستوى بيئة ، وحتمية تقدم ، وسنة حياة .

ونمضى ، ونترك للأجيال بعدنا ما نترك ، والباب مفتوح أبداً ليس لأحد أن يدعى أنه أغلقه ، والمجال رحب يتلقى كل حين جديداً لن يلبث أن يصير من القديم ، دون أن تسلم الحياة بأن أحداً قال الكلمة الأخيرة فيه " . (٢)

ولا يفوت عاقلاً ن مجرد كتابتها هذا الكتاب مع كونها أقرب التلاميذ إلى قلب ، وعقل ، ومنهج أستاذها ، مجرد كتابتها فيه رفض لمقولة الخولى ودفع عملى لمذهبه .

أما الرد الحاسم القاطع ، فيتجلى أعظم ما يكون فى تراث الإعجاز عند معاصر الخولى: العلامة الثبت د / محمد عبد الله دراز فى ثلاثيته العظمى : مدخل إلى القرآن الكريم ، دستور الأخلاق فى القرآن الكريم ، النبأ العظيم " نظرات جديدة فى القرآن " .

وكذا فيما أبانت عنه دراسات الدكتور محمد أبو موسى فى الإعجاز البلاغى ، ومراجعات فى أصول الدرس البلاغى ، والبلاغة القرآنية فى تفسير الكشاف ، وفيها جميعا ما يفتح مجال البحث فى " الإعجاز " إلى آماد لا تنقطع .

---

(١) الإعجاز البيانى القرآنى ص ١٧ ط . دار المعارف بمصر / ثانية .

(٢) السابق ص ٣٤ .

المبحث السادس

الخولى يرد على الخولى

تكاثرت فيما مضى دعوات أمين الخولى التى تواترت بإلحاح وإصرار على تحقيق غايات بذاتها .. منها : ـــ

ـــ فصل الغاية الدينية وإقصاؤها عن أغراض البلاغة الحديثة . (١)

ـــ رفض وجوه تعليل إعجاز القرآن ، والدمدمة على القائلين بها . (٢)

ـــ قفل باب التجديد فى دراسة إعجاز القرآن؛ إذ لا جديد يرتجى، ولا حاجة إلى مزيد قول فيها". (٣)

كل هذه التقريرات الخطيرة نقضها صاحبها نفسه بحديثه عما أطلق عليه " الإعجاز النفسى " ، و " الإعجاز الفنى " ؛ وذلك لأن فى مجرد رصده هذين الوجهين توجها إلى :

ـــ كشف بلاغة ذات غرض دينى فى إعجاز القرآن .

ـــ تعليل للإعجاز بوجهين ، فى حين رفضه هذا الصنيع من الأئمة .

ـــ رصده هذين الوجهين تجديد فى دراسة الإعجاز ، وفيه تناقض مع دعوته لقفل باب التجديد فيها.

وأعتقد أن هذا التناقض بين جداً ، وكدت أكتفى به فى دفع مقولات الخولى التى شغلت بها على مدى الصفحات السابقة ، لولا أنى وجدت فيها نقاطاً فرعية مما يستوجب التنبيه والنظر .

على أنه مما يجب أن يتناوله البحث هنا تحليل مقولات الأستاذ حول هذين الوجهين ، توفية للغرض ، وتتميما لمباحثه .

فقد قدم الأستاذ بأسطر لما أسماه " بالإعجاز النفسى " جهر فيها بمكانة دراسة " الإعجاز " فى الدرس البلاغى العربى ، على مدى قرون عدة ، حيث يقول :

---

(١) ينظر : البحث ص ٣٤

(٢) ينظر : البحث ص١٦

(٣) ينظر : البحث ص ٣٩

" وأبعد من ذلك وأعمق ان تقد يرنا صلة البلاغة بعلم النفس سيهدينا فى بحث مسألة قديمة ، جليلة الخطر ، كانت منذ أول الدهر خالقة البحث البلاغى ، ومحدود غايته ، وموجهة دراسة ، تلك هى مسألة إعجاز القرآن التى نعرف جميعا أنها أفعل ما أثر فى البحث البلاغى ، وحياة البلاغة العربية ، ونقدر ما كان ــ ولا يزال ــ لها من خطر أدبى وخطر دينى"[١]

ولو قورنت هذه الفقرة بما سبق تسجيله من كلام الأستاذ من أن الخلاف حول الإعجاز قد استغرق أكثر حيوات البلاغة ، وأن الغاية الدينية المتعلقة بالإعجاز قد أخرجت الدرس البلاغى العربى عن مساره الصحيح ، وأن تجديد البلاغة لابد وأن يخلى الدرس البلاغى من هذه الغاية ، ويخلصه من تحكمات " اللاهوتية " الضيقة ... [٢]

قارن هذا بخاتمة الفقرة الواردة بقوله : " مسألة إعجاز القرآن التى نعرف جميعا أنها أفعل ما أثر فى البحث البلاغى ، وحياة البلاغة العربية ، ونقدر ما كان ــ ولا يزال ــ لها من خطر أدبى وخطر دينى " . [٣]

فها هو ذا يناقض دعوته لإهمال الغرض الدينى ، ويناقض ما قرره من أن مسألة الإعجاز قد قيل فيها ما يعده أصحاب الدين ، والأغراض الدينية كافياً مغنياً ، وما أظن أن لديهم جديداً يزيدون عليه " . [٤]

فبعد هذا كله جهر الخولى بأن مسألة الإعجاز " لا يزال " لها مجال فى الدرس الحديث ، مراعاة لعظم تأثيرها من الناحيتين الأدبية والدينية .

ومما يشير إلى خبايا فى النفس أن الخولى فى سياقه هذا قد ولى تعداد وجوه الإعجاز عند أهل العلم ، حتى سجل منها هنا اثنى عشر وجها ، تعد أظهر وأقوى ما قرره أئمة دراسة الإعجاز فى كتبهم . [٥]

وهذا موقف مغاير تماماً لموقفه فى سياق ما عده " جناية " منهج الكلاميين فى توجيه الإعجاز " حيث نقل عن " شرح الجرجانى على الموافقات " ثلاثة آراء فقط ؛ لا ترقى إلى ما قرره هنا ..

---

(١) مناهج ص ١٥١ .

(٢) ينظر : البحث ص ٣٧

(٣) مناهج ص ١٤١ .

(٤) فن القول ص ١٥٧ .

(٥) مناهج ص ١٦٢.

ومن المعجب أن الذين نقل عنهم الوجوه الأثنى العشر جلّهم من المتكلمين مثل الرمانى ، والباقلانى ..

وبعد هذا نعودُ إلى تحقيق ما عده الأستاذ الوجه الأوحد الذى يمكن أن يعلل بـه إعجـاز القرآن . فقال فى أسلوب حاسم : " بالأمور النفسية لا غير يعلل إيجـازه ، وإطنابـه ، وتوكيـده ، وإشارته ، وإجماله ، وتفصيله ، وتكراره وإطالته ، وتقسيمه وتفصيله ، وما جاوز ذلك فهو الإدعـاء والتمحل ، أو هو أشبه شيئ به ". (١)

والذى قرره الأستاذ هنا له وجه من القبول ؛ إذ إن المتأمل فى القرآن يمكن أن يجد له شـواهد وصـوراً تتجلى فيها الملامح النفسية التى أشار الشيخ إليها ، ولا ريب أنها فى نماذجها ترقى إلى درجـة الإعجـاز ، طالمـا أن العين التى أبصرت ، والموهبة التى تذوقت كليهما على مستوى النضج والاستواء . (٢)

إلا أنه مما يرد على الخولى هنا : أن ليست كل آيات الذكر الحكيم وسوره تتجلـى فيهـا الملامح النفسية على حد سواء ، فإذا كان النظم المعجز قد صورت بعض آياته معانى تحوى انفعـالاً متوتراً ، وقلقاً مضطربا ، وخوفاً هالعاً ، وسكينة مطمئنة ، وفرحاً باسماً وحزناً منقبضاً ، ورجاءً مؤملاً ، ويأساً قانطاً ... إلى آخر هذه الحالات والأحاسيس النفسية الكثيرة ، والمتفاوتة . ظهوراً وخفـاءً ، وقوة وضعفا ،وشيوعاً وندرة ..

أجل ... إذا كان هذا متحققا فإن هنالك شواهد قرآنية كثيرة أيضا تخاطـب العقـل أولاً معتمدة على ركائز العلم ، وحقائق الكون ، وثوابت العقيدة ..

وهى ـــ وإن امتزجت ببعض الأحاسيس والانفعالات بلا ريب ـــ لكنـها تظـل مقـصد التذكير ، ومتجه الخطاب، ومحك الحوار والمناقشة ... وتكثر هذه جداً فى عرض قـضايا العقائـد ، وأحكام التشريع ، ولهما فى القرآن النصيب الأكبر .

---

(١) مناهج ص ١٥٤ .

(٢) طبق هذا د / محمد أحمد خلف الله فى دراسته " الفن القصصى فى القرآن الكريم " وحاول تجلية ما أشـار إليـه أستاذه " أمين الخولى " فى كثير من صفحات الرسـالة " ص ٢٦٢ ـــ ٢٨٦ ، ٢٣٢ ، ٢٣٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٦ . ، وإن كان عمله متلبساً بمخالفات علمية خطيره .

وفى ضوء هذا فإن ما قرره الأستاذ ــ رحمه الله ــ من الاقتصار الحاسم على التعليل بالجانب النفسى ليس مسلما ، وهو وإن وفى التوجيه فى موضوعات ومواقف بذاتها فى القرآن ، فإنه ــ بلا ريب ــ لن يشمل كل المعانى والمواقف القرآنية .

كذلك يرد على كلام الخولى السابق أنه قد اعتمد فى توجيهه النفسى على مقررات علم النفس الحديث ... وهذا يجعل نتائجه وتقريراته فى مهب الريح المتقلبة ..

إن هذا العلم – خاصة– قد أجمع دارسوه على أنه لم يستقر على مبادئ تصلح أن تكون حقائق ثابتة فيه ، وأن رواده وعلماءه الكبار قد تأثر كلٌّ منهم بمذهبه الفلسفى ، ومعتقده الدينى ، وبيئته التى درج فيها ، ومنهج تعليمه الذى رُبِّى عليه .. إلى آخر هذه العوامل المؤثرة يقينا فى توجيه دارس هذا العلم إلى اتجاه دون آخر ، بل تسوقه بدون قصد إلى اتباع مذهب دون سواه ، بل إن العوامل السابقة لتؤثر على دارس علم النفس فى كافة مراحل البحث ولا سيما فى استخلاص النتائج .

ولا أصدق على هذا من أن معظم الاتجاهات التى كانت تموج بها الدراسات النفسية إبان كتابة أمين الخولى لهذه البحوث قد ذهبت مع الرياح ، ولم يبق منها إلا طلل يدرس فى تاريخ هذا العلم دون أن يكون له تأثير ما فى توجيه الدراسات النفسية ، ولا كيفية الإفادة منها ، وقد خلفتها مدارس لها مذاهب مغايرة ، وقد تبنت آراء مخالفة فى معظم القضايا .

وهكذا فإن مدارس علم النفس فى توالد وتمالك مستمرين... فهل يصلح هذا أن يدخل ضمن ضوابط ، يوجه فى ضوئها إعجاز القرآن الأزلى الأبدى ؟ ! .

يضاف إلى ما سبق ــ وهو الأهم ــ أن معظم هذه المدارس النفسية وكبار مؤسسيها ، وروادها ، وكبار علمائها معظمهم ــ إن لم يكن كلهم ــ يصدرون فى أرائهم ومذاهبهم عن أسس فلسفية ، تحوّى كثيراً من مقولات الإلحاد والضلال العقدى ، والتشريعى ، والسلوكى ....

فأنى يهتدى بنتاج هذا الإلحاد والضلال فى فهم إعجاز القرآن الكريم ؟! . ثم طبق الشيخ نظرته هذه فى دراسة " التكرار فى القرآن " عارضاً وجهات نظر أهل العلم ، على عادته فى تقييم أعمال سلفه ، تمهيداً لاستعظام عمله .

وقد كان شيوخنا الكملة ــ نضر الله وجوههم ــ ينصحون لتلاميذهم بأن يـروا عملـهم قليلا ، ويروا أعمال غيرهم كثيرة عظيمة .. فَرَقاً من العُجْب ، وغمط الناس .

ثم دلف الأستاذ من حديثه عن " الإعجاز النفسى " إلى الوجه الثانى : " الإعجاز الفـنى " . وقد ربط الأستاذ بينهما فى مثل قوله : " وما دام الأمر فنا ، ونقداً ، وتقديراً أدبيا، وقد تبينا فى جلاء ووضوح صلة ذلك كله بعلم النفس ، فقد اتصل الإعجاز الفنى وفهمه بهذا العالم النفسى . [١]

وإذا كان الأستاذ قد لخص مفهوم البلاغة عنده فى " فنيه القولى ، وفن القـول " [٢] فإنـه على هذا يكون الإعجاز الفنى هو الإعجاز البلاغى ويكون الخولى قد ارتضى ما سـبق وأن انتقـصه وعابه من منهج تعليل الإعجاز ، وإن كان حديثه عن الإعجاز الفنى ــ أى البلاغى ــ مما يحتاج عنده لإيضاح حيث يقول تعليقا على مذهب السكاكى فى رد فهم الإعجاز إلى الذوق :

" على هذا يكون طريق معرفة الإعجاز هو تكوين الذوق الفنى ، والممارسة الأدبية للبلاغة ، على ما تقضى به أصول التربية الفنية الصحيحة ، وبهذا يكون قصر البلاغة على بيـان الإعجـاز قصراً فنياً لا ضرر منه مطلقا عليها . [٣]

وهذا الذى انتهى إليه الشيخ ليس من مبتكراته ؛ إذ سبق وأن قرر البحث أن هذا هو منهج أئمة دراسة الإعجاز لاسيما عند الباقلانى ، وعبد القاهر ، بل إن منهج التذوق كان هو الآلة الوحيدة التى أدرك بها العرب الأوائل الإعجاز حتى القرن الثالث دونما حاجة إلى توجيه آخر أو آلة أخرى . [٤]

وفى إبانة الخولى عن كيفية إدراك هذا الإعجاز الفنى يتأكد مدى ربطه بالإعجاز النفسى فى مثل قوله : " وعلى هذا الأصل يمكن أن يدرك إعجاز القرآن الفنى وامتيازه الأدبى عند الشاعرين به بأن يقال فى بيان وجه هذا الإعجاز :

---

(١) مناهج ص ٢٥٤ .

(٢) فن القول ص ١٧٨ .

(٣) مناهج ص ١٣١ ، ١٣٢ .

(٤) ينظر : البحث ص

إن القرآن قد راعى قواعد نفسية عن مظاهر الاعتقاد ، ومسارب الانفعال ، ونواحى التأثير ... فقد جاء القرآن بهذه الرعاية للنفسيات نسجاً دقيقا على مثل نفسية لم يكن لمتفنن قدرة عليها ... " [١]

مرة أخرى يعبر الخولى عن الإعجاز البلاغى بالإعجاز الأدبى ، وذلك فى قوله : " إنا لن ننظر إلى هذا الكتاب نظرة " لاهوتية " [٢] فى لون مّا من ألوانها ، ولن نخشى من ترك هذه النظرة اللاهوتية خطراً قريباً أو بعيداً على عقائدنا أو عقائد الناس حولنا .

فإن هذا الإعجاز الأدبى قد دفعه مسلمون حين قالوا بالصرفة ، ولم يقدح إنكار الإعجاز البلاغى فى عقائدهم ما داموا قد عرفوا وجها آخر له . [٣]

فها هما قد توارد المصطلحان " الإعجاز الأدبى ، والبلاغى " بمفهوم واحد ، ولا مشاحة فى الإصطلاح ... إلا أننى لم أقرأ قبل الخولى من أطلق على الإعجاز البلاغى إعجازاً أدبيا ، لاسيما وأن منهجه فى التطبيق فيه إشارات طورت فيما بعد إلى زيغ وضلال .

فالخولى يقرر فى كلام طويل ثقيل منهجه فى قوله " أوثر أن أعرض القرآن لدرس فنى حر مخلص ... بل سنضع من أصول الفن القولى ما يستطيع الزمن اليوم أن يضعه متحرراً من كل قيد ، ثم ننظر على ضوئه فى هذا القرآن ، فينتهى بنا ذلك النظر إلى ما يمكن أن ينتهى إليه ، وتقبُّله ما دامت القدرة الإنسانية قد سخرت لتبرئته ، وتنزيهه ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا ". [٤]

بل إنه ليذهب أن " القرآن ليس إلا أثر أدبيا وطرفة من الفن القولى " [٥].

---

(١) مناهج ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٢) كثر التعبير بهذا المصطلح المجتلب من القاموس النصرانى ، وقد حمّل من عصور الظلام المسيحية الأوربية ما يلقى ظلالاً خبيثة من حواشى هذا المصطلح .. ينظر ص ٧٢ .

(٣) فن القول ص ١٦٦ .

(٤) السابق ص ١٦٧ .

(٥) مناهج ص ٢٥٣ .

... هكذا بالقصر والحصر ، أغفل كون القرآن تنزيلاً ، ووحياً ، وهدىً للناس ، ونوراً مبينا .... الخ ما وصف به القرآن نفسه ليصبح القرآن فى نظر الخولى " ليس إلا أثراً أدبيا ، وطرفه من الفن القولى " .

وقد دعا فى أكثر من موضع من كتابيه إلى دراسة القرآن على أنه نص أدبى بعيد عن أى اعتقاد مسبق فيه فقال :

" وبقى بعد ذلك أن ننظر إلى فنية هذا الكتاب من حيث هو كتاب العربية الأكبر وأثرها الأشهر الذى عرف له أدباؤها ما عرفوا ، خلال الأجيال التى قطعها إلينا .

سننظر إلى هذا الكتاب من حيث هو الأثر الأدبى العربى الذى ينظر فى تقديره صاحب هذا اللسان العربى بعروبته ، ولغته ، وذوقه ، وفنه ، لا بشئ غير هذا : من عصبية دينية ، أو عصبية جنسية ... لأن أبعد ما فى الأمر هو إنكار الإعجاز البلاغى بوجه أدبى ، وليس فى هذا بأس ، ولا هو يجعل لأحد علينا سبيلا ... ".[١]

كانت هذه المقولات أصلا لما قرره د / محمد أحمد خلف الله فى رسالته " الفن القصصى فى القرآن الكريم " ، الذى رفضته لجنة المناقشة بمجرد مطالعته ، ورفضت منوله أمام لجنة الحكم ، بل قضت على صاحبه بالرده إن هو كان معتقدا ظاهر كلامه .

وكان أن استبدلت الرسالة بأخرى ، ولكن الخولى وخلف الله أصرا على طباعتها بهيئتها المحكوم عليها بما عرفت ، وقدم لها الخولى بتقدمة تعلن إصراره على كل ما فيها رافضا كل ما أثير حولها من مناقشات .[٢]

وأرجو ألا يكون العلمانيون العرب قد اتكأوا على بذور الخولى فى هذه الجزئية فانطلقوا منها متجرئين على المقدس ، لاسيما وأن الخولى الذى اكتشف موهبة أجرأ علمانى مصرى معاصر على القرآن والرسول وعلوم الإسلام ، وأئمتها وهو نصر حامد أبو زيد .[١]

---

(١) فن القول ص ١٦٦ .

(٢) تراجع تقدمته للكتاب المطبوع ص / هـ ـ ل . الفن القصصى فى القرآن الكريم ط النهضة المصرية / ثانية / ١٩٥٧

ومراجعة المناقشات التى دارت حول القضايا المثارة من العلمانية نجدهم قد أكثروا من استعمال " اللاهوتية " و " اللاهوتيين " ، و إطلاق " العمل الأدبى " كثيراً على القرآن ، ثم فى نظرة الخولى إلى القرآن نظرة مجردة من كل خلفية مقدسة سابقة يذكر بما صنعه العلمانيون الأوربيون منذ عصر النهضة مع الكتب المقدسة ، وأخشى أن يكون العلمانيون العرب قد تجرأوا على القرآن مستنبتين هذه البذرة ، لاسيما الذين جاهروا بأن دراسة القرآن دراسة ألسنية لغوية محضة الغاية منها التحرر من هيبة النصوص اللاهوتية ، وتجلية حقيقتها ؛ لأنها تبدو فوق الزمان والمكان والمشروطات اللغوية .

وهذه الدراسة تبين أنها نصوص كغيرها من النصوص اللغوية تنطبق عليها القوانين النحوية والصرفية نفسها التى تنطبق على غيرها .[٢]

وهكذا سار العلمانيون العرب آماداً فسيحة بعد أن تجرأوا فى حمى نص الخولى السالف ، وقرروا مقولات يتجلى فيها الزيغ الصريح بل المجاهرة المغرورة ، تحت ستار ، حرية التفكير ، ونزاهة البحث العلمى ، وترك العصبية الدينية أو الجنسية التى وردت فى كلام الخولى السابق .

---

(١) ينظر : بحث القرآن الكريم والتأويلية العلمانية د / أحمد إدريس الطحان / دمشق موقع بريد الكترونى Ahmad altan @ mohtoob.com.

(٢) ينظر : بحث القرآن الكريم والتأويلية العلمانية د / أحمد إدريس الطحان / دمشق موقع بريد الكترونى Ahmad altan @ mohtoob.com.

خاتمة وتعقيب

فإن نظرات البحث فى مقولات الشيخ أمين الخولى ــ رحمه الله ــ فى إعجاز القرآن قد انتهت إلى النتائج التالية :

ــ إن الخولى لم يصبر على قراءة تراث أئمة الإعجاز والبلاغة فعشى عن حقائق ونفائس مما وقع عليه معاصروه وخالفوه كالرافعى ، وشاكر ، ودراز ، وأبى موسى .

ــ إن الخولى لم ينصف فى حكمه على دراسات المتكلمين والأصوليين للإعجاز ، والبلاغة القرآنية ، ولم يحسن بهم الظن ــ كما أوصى هو بهذا تلاميذه ، فجاءت تقريراته عنهم فيها جور ، وجرأة ، وتشويش .

ــ كثيراً ما اكتفى الخولى بإلقاء الشبهات ، دون تحقيق ولا تمحيص كما صنع فى إثبات الأثر الهندوسى فى دراسة إعجاز القرآن ، ولو رام تحقيق هذا لأُسْقِط فى يده ، ولاستحق وصف مقلده الذى خدع به ..

ــ كثيراً ما يقع الخولى فى التناقض كما حدث فى إثباته وجهى الإعجاز " النفسى والفنى " مع أنه قد سبق وأن دمدم على القائلين بتعليل الإعجاز .

ــ على غير عادته ، ودعواه : دعا الخولى إلى قفل باب الاجتهاد فى دراسة إعجاز القرآن مع كونه ناقض هذا بتقرير الإعجاز النفسى والفنى .

ــ لَبس الخولى على قارئه فى الترويج لدعوى تأثر البلاغة العربية بالبلاغة اليونانية حيث اعتمد على الترجمة الحديثة لكتب أرسطو ؛ إذ ليس فى الترجمة القديمة ما يعين على تحقيق دعواه ، ولا فيما أورد شاهد يدل على صدق مقولته .

ــ ترتب على مقولات الخولى ظهور دراسات لتلاميذه " الأمناء " ، وفيها أضعاف ما عند أستاذهم من الزغل بَلْهَ .. ..

- فرسالة الفن القصصى فى القرآن الكريم " للدكتور / محمد أحمد خلف الله : نتجت من بذور الخولى ، وعليها أشرف ، وعنها دافع ، ولها قدم ومجّد حتى بعد رفض " اللجنة العلمية المناقشة " الاعتداد بها مطلقا ، وإجبار الباحث على كتابة بديل عنها . (١)
- ورسالة د / شكرى عياد " كتاب ارسطو طاليس فى الشعر " .....

وقد نص الباحث فى مقدمته أن أمين الخولى أول اثنين لهما التأثير الأكبر فى هذا مع دكتور طه حسين (٢)

- د/ نصر حامد أبو زيد له علاقة خاصة جداً مع الخولى ، حيث اكتشف موهبته المشئومة ، وحول مسار حياته ، وبذر فى عقله ما نتج عنه الضلال المبين فى أبحاثه التى تزعم بها التيار العلمانى المعاصر على طريق الإلحاد الجرئ ، والعبث الساخر بالدين وعلومه وأئمته . وأسأل الله ألا يحمل الخولى أوزار هذا وأمثاله .
- د / سيد أحمد خليل بنى على سطر الخولى فى إقتداء المسلمين بالهندوس فى تقرير الإعجاز فصلاً كاملاً ملأه بأباطيل تضحك الثكلى ..
- د / مصطفى الصاوى الجوينى بنى على مقولة الخولى " المدرسة المصرية فى البلاغة " رسالة دكتوراه كاملة تحت عنوان " ملامح الشخصية المصرية فى الدراسات البيانية فى القرن السابع الهجرى " (٣) وفيها الكثير مما يحتاج إلى تحقيق ومراجعة .
- د / درويش الجندى بنى رأيه الذى شاع فى كتابه " نظرية النظم عند عبد القاهر " بخصوص الغاية الدينية عند عبد القاهر ، بناها على رأى الخولى الذى سبق إيراده ومناقشته فى البحث . (٤) هذا غيض من فيض من نتاج بذور الخولى ، وهى كما ترى قد دُبِّر لها ولأصحابها مراقى الشهرة والمناصب ، ويسّر لهم النشر بكل سبله ، حتى بثوا أفكارهم ولا يزال الحى منهم يبث فى

---

(١) يراجع تقديم الخولى للكتاب المطبوع بالعنوان ذاته هـ- ل

(٢) لم يذكر د / إبراهيم سلامة أمين الخولى ولا دراساته ، وهذا مما ينظر فيه من نواح عدة . ينظر : بلاغة أرسطو ط . الأنجلو المصرية / ثانية ١٣٧١هـ ـ ١٩٥٢ م.

(٣)ط الهيئة المصرية العامة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م

(٤) ينظر البحث

كل وسيلة نشر أو أعلام فضل بهم مئات الألوف من الأشياع الذين لم تتح لهم فرصة التحقيق ، والتثبت ، والمراجعة ..

ولا تكفى هذه الصفحات لمناقشتهم ، فكل بحث من بحوثهم بحاجة إلى توفر دراسة مستقلة تجلى ما فيه من زيغ وانحراف وتنبه إلى ما فيه من خير نافع - على ندرته - حتى تكون الأجيال القادمة على بينة من أمرها فى شأن تراث هذه المرحلة السوداء من تاريخ الأمة .

يسر الله لأولى التوفيق الاطلاع بهذه المهام الجسام ، وجعلنا من عدول خلف أهل العلم حتى نترسم خطاهم إلى يوم أن نلقاه بقلب سليم .. إنه سميع ، قريب ، مجيب ..

ثبت المراجع

أثر القرآن فى تطور النقد العربى	د/ محمد زغلول سلام ط دار المعارف ثالثة ١٩٦٨م
أدب الكاتب	ابن قتيبة ت محى الدين ط التجارية ١٣٨٣هـ ١٩٦٣ م رابعة
الإعجاز البيانى	د/ عائشة عبدالرحمن ط دار المعارف ثانية
الاعجاز القرآنى . وجوهه وأسراره	د/ عبدالغنى بركة ط. وهبة ١٤٠٩ ١٩٨٩م أولى
إعجاز القرآن البيانى بين النظرية والتطبيق	د/ حفنى شرف ط. المجلس الاعلى للشئون الاسلامية ١٣٩٠هـ ١٩٧١م.
إعجاز القرآن والبلاغة النبوية	الرافعى ط التجارية الكبرى ١٣٨٤هـ ١٩٦٥م ثامنة
الامتاع والمؤانسة	أبو حيان التوحيدى ت احمد أمين وأحمد الزين ط العصرية بيروت ١٣٧٣هـ ١٩٥٣م
البلاغة القرآنية فى تفسير الكشاف	د/ ابو موسى ط. وهبة ١٤٠٨هـ ١٩٩٨م ثانية
البلاغة القرآنية عند الإمام الخطابى	د/ صباح دراز ط الامانة ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م
البلاغة المفترى عليها	د/ فضل حسن عباس ط الفرقان عمان الاردن ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م
البلاغة بين عهد ين	د/ محمد نايل ط دار الفكر العربى ١٩٩٤م
البلاغة تطور وتاريخ	د/ شوقى ضيف ط دار المعارف رابعة
البلاقانى وإعجاز القرآن	د/ عبدالرءوف مخلوف ط الحياة بيروت ١٩٧٣م
البيان العربى	د/ بدوى طبانه ثانية ١٣٧٧هـ ١٩٥٨م
البيان والتبين	للجاحظ ت عبدالسلام هارون ط. الخانجى / رابعة
تقريب مناهج البلغاء	د/ محمد أبو موسى ط وهبة اولى ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م
حازم القرطاجنى ونظريات أرسطو فى الشعر والبلاغة	د/ عبدالرحمن بدوى ط . القاهرة ١٩٦٠م
خصائص التراكيب	د/ محمد أبو موسى ط وهبة ١٩٨٠ م
الخصائص لابن جنى	ت النجار ط. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م رابعة
دلائل الإعجاز	عبد القاهر الجرجانى ت الشيخ محمود شاكر ط المدنى ثالثة ١٤١٣هـ١٩٩٢م .

الرسالة الشافعية فى اعجاز القرآن	لعبد القاهر الجرجانى ت . شاكر ط. المدنى ١٤١٣هـ ١٩٩٢م ثالثة
ضحى الإسلام	احمد أمين ط.. النهضة المصرية تاسعة
الفائق فى غريب الحديث	للزمخشرى ت البيجاوى وابى الفضل ط. عيسى الحلبى / ثانية
الفن القصصى فى القرآن الكريم	د/ محمد أحمد خلف الله النهضة المصرية ١٩٥٧م
فن القول	أمين الخولى ط دار الفكر العربى ١٣٦٦هـ ١٩٤٧م
قضية الشعر الجاهلى	محمود محمد شاكر ط المدنى اولى ١٤٢٣ هـ ٢٠٠٢م
قضية الاعجاز القرآنى	د/ عبدالعزيز عرفة ط. عالم الكتب اولى ١٤٠٥ ١٩٨٥م
الكشاف	للزمخشرى ت قمحاوى ط. مصطفى الحلبى ١٣٩٢هـ ١٩٧٢م أخيرة
اللغة الشاعرة	للعقاد ط. المكتبة العصرية بيروت – بدون
مدخل الى كتابى عبدالقاهر	د/ محمد ابو موسى ط وهبة ١٤١٨هـ ١٩٩٨م اولى
مراجعات فى أصول الدرس البلاغى	د/ محمد ابو موسى ط وهبة أولى ١٤٢٦هـ ٢٠٠٥م
المرايا المقعرة	د/ عبدالعزيز حمودة ط عالم المعرفة ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م
مصادر الشعر الجاهلى	د/ ناصر الدين الاسد ط دار الجيل بيروت ثامنه
المغنى فى التوحيه والعدل	ت أمين الخولى ط. وزارة الثقافة بمصر ١٣٨٠هـ ١٩٦٠م اولى
مفتاح العلوم	السكاكى ت هنداوى ط دارالكتب العلمية بيروت ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م أولى
مفهوم الإعجاز القرآنى حتى القرن السادس الهجرى	د/ أحمد جمال العمرى ط. دار المعارف ١٩٨٤م
مقالات الإسلاميين	الاشعرى ت . محى الدين عبدالحميد – بدون
الملل والنحل	للشهرستانى ت. بدران ط. الازهر أولى
مناهج البحث البلاغى فى الدراسات العربية	د/ عبدالسلام عبدالحفيظ ط. دار الفكر العربى ١٩٧٨م اولى
مناهج تجديد	أمين الخولى ط الهيئة المصرية العامة ١٩٩٥م
النقد الادبى الحديث	د/ محمد غنيمى هلال ط نهضة مصر بدون
النقد المنهجى عند العرب	د/ محمد مندور ط دار المعارف بدون

ثبت الموضوعات

الموضوع	الصفحة
• تقدمه	١
• تمهيد	
• المبحث الأول : دعوى الأثر الأجنبي فى دراسة إعجاز القرآن	
• المبحث الثانى : رفض أمين الخولى الوجوه التى أوردها الأئمة فى إعجاز القرآن	
• المبحث الثالث : : تقييم الخولى لطوائف المتكلمين فى " الإعجاز "	
• المبحث الرابع : إصرار الخولى على إخراج الغايات القرآنية من أغراض منهج البلاغة الحديثة	
• المبحث الخامس : دعوة الخولى إلى إغلاق باب الاجتهاد والتجديد فى دراسة الإعجاز القرآنى	
• المبحث السادس : الخولى يرد على الخولى	
• خاتمة و تعقيب : رصد البحث فيها أهم النتائج التى أرتضاها .	
• ثبت المصادر والمراجع.....	
• ثبت الموضوعات.....	